

لِأَمِّ الْعَرَبِ



الْحَجَلَةُ الشَّوْقِيَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دار
الكتاب
العلمي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

أعلام العرب

أحمد بن محمد بن
سري

تأليف: د. ماهر حسن فني

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربي)

١٩٦٩



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

مقدمة

لو لم تمر مصر بمرحلة الانبعاث و احياء التراث ، ثم تندفع فى الصراع الذى دار بين المدينة الشرقية والحضارة الغربية ، وتحاول فى مسيرها أن تعرف ذاتها ، ما وجد الشاعر الذى يعبر عنها ، بل ما كانت فى حاجة اليه . ومن المؤكد أن مصر لو لم تنبت شوقى لأنبتت غيره ، لأن التربة الخصبة كانت فى مرحلة مهياة ، فلا بد أن تنشق الأرض عن بذرة يعلو ساقها ليصافح النور . فشوقى هو الرمز الذى اتخذته مصر لتعبر عن واقعها فى مرحلة النهضة ، وبداية التجمع العربى ، أو قل هو القيثارة التى عزافت نشيد الأمل والأمل فى مرحلة من مراحل البناء .

وعلى الرغم من الدراسات التى ظهرت توازن بين شوقى وحافظ أو تعرض ذكريات المؤلف عن حياة شوقى معه ، أو تدرس جانب الدين فى شعره أو جانب الوطنية أو الشعر الاسلامى أو المسرحيات ، فقد كان شوقى بحاجة دائما الى دراسة تحليلية . ومنذ أخرجت المطابع كتابي عن شعر شوقى الاسلامى ، شعرت بهذه الحاجة ، وطال الزمن عشر سنوات تقريبا ، ولا يصدنى عن الموضوع الا شهرة شوقى فالأديب المغمور ، كل كلمة تبعث فيه الحياة ، لأنها جديدة ، ولكن ما الجديد فى دراسة شوقى ؟ أقول عاش ، وقال ؟ لا ، فلا بد من جديد فى المحتوى وفى الشكل ، وانتاجه كله مطبوع ، ولا بد من جديد ، والدراسات عنه موجودة ، ولا بد من جديد ، أن الدوريات هى النبع الذى لا يغيض ، فقد شغل الشاعر الناس

طول عمره ، وكتبت عنه الصحف المشهورة والصحف المغمورة .
كتبت عنه دفاعا وكتبت عنه هجوما . ولكن تشكيل هذه المادة
الأولية معضلة أقسى ، فلو كان الرجل كثير الحركة على مسرح
الحياة مثل البارودي المحارب ، أو الزهاوى رجل النوادي ، لأمكن
خلق المادة على المسرح مرة ثانية في غير عناء كبير ، وهذا ما أحسه
هو حين أنهى من مسرحية « مصرع كليوباترا » وبدأ مسرحية
« مجنون ليلى » ، فالأولى مليئة بالحركة ، دخلت مواقع عربية
وخرجت ، وعرفت النصر والهزيمة ، ولكن « قيس بن الملوح »
احتاج الى جهد ضخم لينفخ فيه الحياة . وحياة شوقي خصبة ،
ولكنها خصوبة ذهنية ، فليس هناك مجال لدراستها الا عن طريق
الذكرى والاستبطان النفسى والحوار . وهو تشكيل فيه خاصية
الرواية أكثر مما فيه من خاصية المسرحية ، وقد كنت أفضل
التشكيل الثانى ولكن هيهات .

فأنت تعرف من خلال الكتابات ملامحه صغيرا وشابا وشيخا .
وتعيش معه أفراحه وأحزانه ، وتدرك أبسط أحاسيسه ، وأعمق
مشاعره ، وتراه يحاور ويستمتع ، في البيت وفي الحياة ، وفي المنفى
وفي مصر ، ولكنك قلما تراه يخطو خطوة كبيرة أو يتحرك حركة
مفاجئة ، وهكذا كان شوقي فى الحياة ، يوم عرفه أبناء جيله ومنهم
كثيرون يعيشون اليوم ويكتبون . فان رأيت الصورة لم تكن
أبعادها فما أسهل النقد وما أشق الفن كما يقول « بوالو » .



مركز تحقيقات كامپيوتر علوم اسلامي

الباب الأول

الببل الصغبر

المهاجر

عجيب أمر هذا الانسان الضارب في أعماق الأرض وأطرافها منذ آلاف السنين ، بما يعثور نفسيته من صراع بسيط المظهر ، معقد شديد التركيب في الواقع . هو عجيب في طموحه ويأسه وأفراحه وأحزانه وغضبه وحلمه وحله وترحاله وأمسه وغده . غير أن مركزا واحدا يدور حوله ويدور في أكثر أحواله ، وهو الأمل . فاليأس استقرار وسكون على أية حال ، ولكن الأمل قوة محرّكة ، مهما اختلفت مظاهر هذه الحركة .

وليس من المهم أن يسأل المرء كيف يبدأ حياته ، ولكن من المهم أن يسأل كيف ينهي حياته . وبين هذين السؤالين مرحلة خصبة مليئة بالطموح والأمل ، عامرة بالجهد والبناء ، وبالهناء والبقاء . والسعيد من أدمت الأشواق يديه ، وألهبت الصخور قدميه ولكنه شق طريقه في رحلة الحياة ، الى وادي الأحلام ، فحقق أمله وبلغ مناه . وقد تتطلب الرحلة أن يهجر المرء أهله وذويه ، ويرحل وراء النبع والخصب ، أو وراء الحرية والأمن ، راكبا طموحه ، وتلك قصة موجات الهجرة في كل زمان ومكان ، وتلك أيضا قصة أحمد شوقي الذي جاء مصر يحمل وصاة من والي عكا الى محمد علي ، وطابت له الحياة فاستقر .

أحمد شوقي . . وينقطع النسب ويصمت التاريخ ، ولماذا يهتم التاريخ وهو ليس علما من أعلام السياسة أو الإصلاح أو الفكر أو قواد الجند ؟ . . ولكنه واحد من الأكراد الذين تجرى في عروقهم الدماء العربية ، فهو يحسن كتابة العربية خطأ وانشاء ، وان كان

لا يحسنها نطقاً دون شك . هاجر بعد انهيار امارة كردستان ضمن موجة تفرقت هنا وهناك . فقد استمر الصراع على الحكم بين الأشقاء والأقارب حتى افرقت كلمتهم ، بعد أن صمدوا طويلا لايران ولتركييا وطمعوا في العراق ، ثم أكمل الطاعون من بعد خراب الامارة (١) .

دخل المهاجر في معية الوالى ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة ، وتدرج هو في المناصب الى أن جاء سعيد ، فأقامه أمينا للجمارك المصرية . ولم يكن من النادر أن يصل الاتراك والجراكسة وغيرهم الى المناصب الرفيعة ، وانما كان النادر أن يصل اليها المصريون . ونحن نعرف أن أحد محرركات الثورة العرابية فيما بعد ، هو ضيق المصريين بهذا الحرمان من القيادات في وطنهم . أحس أحمد شوقى اذن أن الوطن هو أرض الطمأنينة والرزق ، ما دامت هناك وشائج قوية بين أرض النشأة وأرض الهجرة . وتزوج المهاجر من فتاة جركسية ، فرزق منها بعلى شوقى المصرى المولد والنشأة ، ثم تركه شابا صغيرا ومات عن ثروة كبيرة خلفها له . وكان من هؤلاء المهاجرين أيضا ، شاب تركى هو أحمد حليم النجده لى ، جاء من قرى الأناضول أيام ابراهيم بن محمد على ، واستعمله الوالى فى خاصته . ثم زوجه من أسيرة حرب جلبها من « المورة » وأعتقها قبل زواجها ، تلك هى « نزار » اليونانية ، التى عملت وصيفة فى القصر زمننا ، وكانت مشهورة بذكائها ، كما كانت موضع اعجاب الوالى . وكان اسماعيل دائم الثناء عليهما يردد من حين الى حين ق « لم أر أعف منه ، ولا أقنع من زوجته ، ولو لم يسمه ابى حليما لسميته عفيفا لعفته » ولم يشأ هذا الوالى على

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٤٨ وما بعدها .

جشعه المعروف ، أن يترك الأرملة التي كانت أثيرة عند أبيه ،
تتضور جوعا مع ابنتيها ، فمنحها راتب زوجها .

وجمعت الظروف بين علي شوقى وابنة « نزار » زوجين ،
فكلاهما من أبناء المهاجرين المتمصرين ، وقالما كان يتزوج مهاجر
من مصرية ، وكلاهما له صلة بالقصر ، وأكثر العاملين بالقصر من
هذه الطبقة الوافدة ، بل ان الحديو نفسه وافد هو الآخر . . . ومما
لا شك فيه أن الغالبية العظمى من المصريات فى ذلك الوقت كن
جاهلات محجبات ، ولكن ذلك كان الطابع العام للمرأة المسلمة حتى
الربع الأخير من القرن الماضى ، ومهما كان الأمر فان الغريب يحن
الى الغريب .

استقر على شوقى مع زوجته فى حى الحنفى ، وبقي ينفق
عن سعة من الثروة الموروثة كأن معينها لا يجف . وما هى الا سنوات
قلائل حتى تبددت الثروة ، وأحس بالضياع وبالفقر يطرق بابه
طرقا عنيفا . لو أحسن على شوقى استغلال ماله فى أحد
المشروعات ، أو كان على خبرة يعمل بها ، لاستفاد ونمت ثروته ،
وأنفاد بلده من خبرته ومشروعه ، ولكنه لم يكن على شىء من ذلك ،
وانما كان واحدا من أبناء « الذوات » الذين ورثوا الثروة دون
تعب فأنفقوها فى سهولة ويسر وعاشوا من بعد يشكون الحرمان .

وفى السادس عشر من أكتوبر عام ١٨٧٠ ولد له طفل ملاً
جنبات الليل بصراخه ، ولكن الليل لم يلتفت اليه ، فقد اعتاد
هذه الصرخات كلما جاء الى الدنيا وليد جديد ولم يكن يدرى أنه
سوف يملأ الدنيا نغما بعد حين . وأسماء أبوه أحمد شوقى تيمنا
باسم جده ، عله يحظى بما حظى به من جاه فى حياته ، أو يدرك
بعض أسرار نجاحه .

وكان على شوقى قد رأى منذ شهور حلما غريبا ، وعلى عادة

أهل العصر حاول تأويل الحلم ، وسأل صديقه الشاعر على الليثى
سمير الخديو . في شأن هذا الحلم ، فقال له على الليثى وهو
يمازحه : « ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقا في
الاسلام » (١) . وها هو ذا الوليد قد خرج الى النور (٢) ، ولكن
ماذا يصنع هذا الوالد المكدود بولده ، أنه لا يستطيع أن يجد عملا
في القصر ، خلال تلك الأيام العصيبة ، وأكبر الظن أنه لا يقوى على
عمل خارج القصر ، وكأنما العمل هو لعنة الانسان في هذه الأرض ،
ولكنها لعنة لا تزول الا بالعمل . وتلك أيام عصبية حقا ، فالأحداث

(١) الشوقيات القديمة ص ١٥

(٢) اختلف مؤرخو الأدب في مولد شوقي ، فجلهم ذكر أن ميلاده كان
عام ١٨٦٨ م وجاء ذلك نقلا عن الشوقيات القديمة حين ذكر شوقي في مقدمتها
انه يحبو الى الثلاثين ، ولما كان تاريخ طبعها هو ١٨٩٨ م ، فان تاريخ ميلاده
على هذا الأساس المذكور يكون صحيحا . ولكن كاتبنا واحدا عن نفسه
بتحقيق تاريخ صدور الشوقيات القديمة وهو الدكتور محمد صبرى ، فوجد
أن التقاريف المذكورة آخر الديوان تؤرخ عام ١٣١٧ وهو يقابل سنة ١٩٠٠
أو النصف الأول منها على وجه الدقة ، ورغم ذلك تابع غيره من الكتاب وذكر
أن تاريخ ميلاد شوقي هو عام ١٨٦٨ م ، وكل ما استنتجه هو أن شوقي كان
قد بلغ الثانية والثلاثين حين خرج الكتاب من المطبعة بفض النظر عن التاريخ
الخطيء المكتوب على غلاف الديوان . ومن الغريب أن سكرتير الشاعر نفسه
قرر في كتابه عن شوقي أنه من مواليد عام ١٨٦٨ ولعل ذلك يرجع الى أن
صاحب الترجمة قلما كان يعرض لسنة بل انه كان يتحاشى ذلك مع جلسائه .
ومن الغريب أيضا أن حسين شوقي نجل الشاعر ذكر أن أباه حين مات عام
١٩٣٢ كان في الثانية والستين ، ولكن أحدا لم يلتفت الى هذا التاريخ الذى
ضاع في زحمة الأحداث ، باستثناء الدكتور أحمد الحوفى فقد تنبه الى ذلك
وحقق تاريخ مولده الصحيح . والواقع أن شهادة ميلاد الشاعر نفسها
موجودة لدى ابنه حسين شوقي وفيها ان الشاعر من مواليد عام ١٨٧٠ وقد
أطلع عليها بعض الباحثين ومنهم صديقى لطف الله أيوب الذى يبحث في
مسرحياته .

تسرع منذرة بالخطر ، حتى لتكاد تسلم الوطن الى نهاية مفزعة من الافلاس والوقوع في أغلال النفوذ الأجنبي .

وانتشلته « نزار » من دوامة الفكر ، فقد كانت موسرة منعمة ، وعرضت عليه أن تحتضن الوليد وتكفله ، حتى يفرج الله أزمته ، ولعلها سمعت تفسير الحلم الذي قاله على الليثى وردده على شوقى ، ورات في الطفل مخايل نبوغ تخبئه له الأيام . ولم يكن أمام الوالد الا أن يقبل ، وهكذا انتقل أحمد شوقى من بيت أبيه الى بيت جدته التى رعته فوق رعاية الوالدين .

تتابعت الأيام ، ونما الوليد ، وتحددت ملامحه ، وكانت الجدة كلما نظرت اليه ازدادت حنوا وعطفا ، فهو بادی الضعف ، حلو القسمات ، لا ينزل بصره عن السماء من اختلال أعصابه ، شديد الهدوء رغم أن سنه هى سن الحركة والتدمير ، ولعلها كانت تدرك أن الدماء التى تجرى فى عروقه لها أثرها فى قدرات الطفل بعد حين ، وبلغ من حنوها أن تحمل الطفل معها الى القصر الذى كانت تعمل وصيفة فيه .

« نزار . . . نزار » ..

بهذا الاسم الاجنبى ، دعا ذلك الرجل البدين القصير ، الذى أغرق مصر فى الديون ، ومكن للأجانب فى التسلط على البلاد ، وشاد القصور ، واقتنى أجمل الجوارى ، وأنفق على حفل واحد مليوناً من الجنيهات ، وقتل وزراءه غيلة ، وكان يتشبهه بلويس الرابع عشر فى بذخه وأسرافه . ودخلت تتعثر رهبة من هذا الجالس فى ذلك « الصالون » الفخم الرائع الأثاث ، وقد أعجلها الصوت الرهيب عن أن تنزل صغيرها الطفل المضعوف عن كتفيها . . . فلم يستنكر اسماعيل حمل الطفل ، فقد كانت جارية أبيه وأثيرة عنده ،

وليس من آداب الملوك أن يدخل عليهم الخدم حاملين أطفالا ، ونو
كانوا أطفال الملوك أنفسهم ، ولكنه تغاضى .
ونظر في عطف الى الطفل الرافع عينيه الى السماء ، وسألها
عن علة عينى صغيرها فلما قالت انه يا مولاي لا يزال هكذا أبدا ناظرا
الى السماء ، أخرج هذا الرجل المسرف السفية قبضة من الذهب
من جيبه المملوء به ، والذي امتصه من دماء الشعب وتقاضاه ضرائب
فادحة سلبها بالسوط والسيف . فلما رأى الطفل ذلك المعدن
الوهاج يتناثر أمامه على البساط الثمين ، لفته البريق الأخاذ
فخفض عينيه المرتفعتين . وضحك هذا الجبار وقال لها وهى ماثلة
أمامه : كلما رفع عينيه انثرى له ذهباً حتى يتعود النظر الى
أسفل . فابتسمت قائلة : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك
يامولاي . قال : جيئى به الى متى شئت ، انى آخر من ينثر الذهب
فى مصر (١) .

مركز تحقيقات كميوتور علوم إسلامي

(١) راجع الشوقيات القديمة ص ١٦ ، حياة شوقى لاحمد محفوظ

الصبي الموعود

— لقد عاد شوقى باكيا اليوم ، مثل كل يوم ، أما آن لك يا على أن تنقله الى مدرسة أخرى ؟ .

— وماذا أنا صانع . أنه ولدى كما هو ولدك ، وأنا أعرف أن الأطفال فى عمر الزهور يدخلون المدارس النظامية فيحسون الرعاية السليمة فى كل خطوة يخطونها ، وهناك الأناشيد الجماعية والصور والرسوم ، والحدايق والموسيقى واللهو الذى لا ينتهى . ولكن ما أبعد الفارق بين هذه الصورة المشرقة ، التى ترقى الأذواق وتنميها ، وبين صورة أخرى داكنة لا اشراق فيها ، الكتاب والعريف والفقير . يجلس الصبية على الأرض وأمامهم شيخ الكتاب يجلس على كرسي خشبي يقرأ جزءاً من القرآن ، والصبية يرددون وراءه آية آية ، ويتكرر ذلك مرة ومرة ، حتى اذا أنس منهم حفظه مارددوه ، بدأ يستمع اليهم ، ولا بد أن يرفع عصاه من حين الى حين فتذوقها أيديهم وأرجلهم الضعيفة . والصبية لا يجراون على سؤاله فى شىء عن معنى الآيات وما أكثر ما يغمض عليهم . من أجل ذلك يشقون حين يبدأ الدرس ، ويتنفسون احساساً بالراحة حين ينتهى ، ويتمارضون كثيراً ، ويكرهون أيامهم لأنها سوداء .

— انه لم يشك من الفقير وعصاه ، وانما شكنا من شراسة الصبية هناك ، وهو رقيق كما تعلم ، يحتمل العذاب ولا يملك الا البكاء .

— أعلم أنها جناية جنتيها عليه ، ولكنى لا أملك نفقات المدارس الابتدائية كما تعلمون .

– انه الآن في السادسة من عمره وقد أمضى عامين في الكتاب لم يستفد الا الآلام التي لا طاقة له بها .

– أن « نزار » هي ملجؤنا ، ولن تبخل على الصبي اذا عرفت فحدثها علني أستطيع نقله الى مدرسة المبتديان ، فالوسط التعليمي فيها أخف على حسه المرهف ، لأن الصغار هناك أميل الى النظام ، وسوف تنتعش نفسه ويميل الى الدراسة .

– سوف أفعل .

– وحين ينتهي من دراسته الابتدائية ، سوف نلتقى بنفسى المشكلة ، ولن يكون من حظه دخول المدرسة التجهيزية ما لم ينل مجانية التفوق .

– عسى أن يفرج الله كربنا وأما الصبي ففيه ذكاء يعرفه الجميع .

كان يستمع الى هذا الحوار بين أمه وأبيه ، فيشعر بالراحة والسعادة .. مدرسة المبتديان .. لا شك أنها صورة أخرى ، سوف يتخذ من تلاميذها أصدقاء لا يجدهم في الكتاب ، وسوف تطمئن به الحياة ويطمئن بها كثيرا .

واذا كانت مجانية التفوق هي وسيلة دخول المدرسة التجهيزية بعد ذلك ، فسوف يفنى في القراءة ، انه يتطلع الى المعرفة ، وكم حاول أن يسأل الفقيه في الكتاب عن معنى الآيات « مالك يوم الدين ... الصراط المستقيم ... ولا الضالين » ولكنه في كل مرة كان يحجم حين يجد عصا الفقيه تبحث عن فريسة . ان مدرسة « المبتديان » بعيدة عن حى الحنفى ، وسوف يقطع الطريق كل يوم ماشيا ، ولكن ما أهون ألم الجسم الى جانب ألم النفس ، وهو

لم يعد طفلاً ، سوف يعرف الطريق ، وسوف يجد فيه لذة وهو يشاهد أحياء جديدة وحياة جديدة .

لقد تحقق ما كان يحلم به ، فلم يعد يعبأ بطول الطريق في الذهاب والعودة وإنما أصبح يعيش الحلم ، فقد حوله الى واقع سعيد ، ترى ايحقق حلمه الجديد فيتفوق لينتقل الى المدرسة التجهيزية ؟ ان زملاءه يتحدثون عنها حديثهم عن أمل كبير ، وهو يبذل كل جهد ليمسك بهذا الأمل . وتلاميذها فتيان لهم شوارب ولحي ،تخطوا هذه المرحلة التي لا يبين فيها الصبي من الصبية ، وابتسم لهذا الحاضر .

كان يقرأ شعر البارودي فيحس بانفعالات غريبة وطرب عجيب ، ولكنه لا يقدر على الاستمرار في تتبع شعر البارودي ، فأمامه الامتحان الذي سوف يحدد مصيره ويسير به الى الطريق التي رسمها لنفسه أو الى طريق غامضة كل الغموض لا يعرف معالمها ولا يتبينها . وانكب على القراءة انكباً ، فالعمل وسيلة تحقيق الأمل . انه على موعد مع القدر خلال الأيام القادمة ، نقطة تحول ، نعم نقطة تحول .

وعندما هنا أبوه بالنجاح وبالتفوق ، لم يكن هناك أسعد منه ، بل لم يكن بيت في الحى أسعد من بيته ، لقد آن اجرتته أن تستريح من عبئه . انه يعيش مرحلة تفتح حقيقية ، ألم يقل انها نقطة تحول ؟ لقد زادت فرحته بهذه الهدية التي تلقاها من جازه وصديق والده ، مجموعة قيمة من الكتب بينها كتاب رائع التصوير . وهذا والده دائم الحديث عن هذه الأسرة « حسيب بك » وشقيقه « عطا » ، وهما في الواقع كما يصفهما أبوه سماحة وكرم أخلاق . لحظات مرت سعد فيها بالهدية ، ثم اقبل والده يخبره أن « حسيب » بعث يسترد الكتاب المصور لحاجته اليه ، فخدمت نشوته ، ثم سالت دمعة أجمت انفعاله ، فأخذ يردد :

حسبت حسيبا زاده الله رفعة
لما نظرت عيناي منه أبا عطا
فخالف ظني ما رأيت فانه
لكالدهر سلاب من الناس ما عطا

وانقلب حزنه فرحا بالبيتين ، وتناقلتهما ألسن الجيران
من مندرة الى مندرة على ما فيهما من خطأ (١) . وشجعه ما قوبل
به البيتان من الاعجاب على الاستمرار في محاولة النظم ليظفر بدزيد
من الاعجاب . لقد التقى بملكة الشعر على أجنحة الخيال ، فمنحته
كل شيء ، وشغف بها حبا من ذلك الحين . الشعر ، انه موهبة
وملكة يلتقى بها الموعود ، مثل موهبة الصوت الجميل ، وان كان
كلاهما يحتاج الى طويل صقل وطول تمرس ورعاية ، حتى لا تسيخ
الملكة قبل الأوان ولا تزور عن الشاعر الى غيره ، وطول الصقل
يعنى ادمان القراءة في الشعر خاصة ، والتجارب في الحياة عامة .

وبدا يقرأ الأدب بشراهة ، ويحيا في أودية عبقريته « ياسر
الطير ويطلقه ، ويكلم الجماد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة
الطل ، ويمر بالعراء مرور الوبل » (٢) . ان فخر أبي فراس يزيد
حمية ، وحكم أبي العلاء تأسر له ، ومواعظ أبي العتاهية تبكيه ،
وهو يحب في ابن خفاجة وصفه الدقيق للطبيعة الثرية ، وفي البهاء
زهير تدفقه المعجز ، ولكن أبا الطيب هو نبي الشعر وحده ، وأكثر
ما يجذبه اليه ويشده شدا لا سبيل الى الفكك السريع منه ، هو
طموحه الغلاب ، الذي دفعه الى اقتحام الصعاب متنقلا من بيئة
الى بيئة وراء أمانيه التي لم يجد سبيلا الى تحقيقها فتغنى بها

(١) الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى - ح ١ ص ٢٥ .

(٢) الشوقيات القديمة ص ٦ .

وهو يشقى ، وذلك الغناء العذب الحزين ، ثم قدرته القادرة
لا على أن يصف الحزن والألم ، ولكن على أن يجرع قارئة الألم
والعذاب معه .

لماذا لا يجرب القول في زملائه وفي مواد الدراسة ؟ . . ان
رفقاءه يستشفون من وراء أبياته هنا وهناك نبوءة صغرى ويدفعونه
الى مزيد من القول . وأساتذته يتفاضون عنه اذا حضر متأخرا
لأنهم يغفرون لكل تلميذ متفوق ، ولكنهم لا يعلمون أن أكثر سهرة
في قول الشعر . وعندما يذهب في الغد ، فسوف يفاجيء الجميع
بقصيدته الجديدة .

واعترضه تلميذ منتفخ الوجه بادی الثراء والزهو في فناء
المدرسة ، بينما التف جمع من التلاميذ حوله وهم يتمازحون ،
وابتدره هذا الزميل كأنما كان ينتظر قدومه :

— ماذا أعددت لامتحان اليوم ؟

— سوف أجيئ شعرا .

— أنسيت أنه درس في الجغرافيا لا في الشعر ؟

— بل أذكر .

— بالأمس سألتك أن تبذل ساعتك المستهلكة لتكون أهلا
لصداقتنا فقلت شعرا أغاظنى :

لى ساعة من مهن
تعجل دقا وتنى
لا يفتنيها مقتن
مثل فؤاد الممن

فهل نظمت الأطلس اليوم ؟

— نعم :

افريقيا قسم من الوجود في شكله أشبه بالعنقود

ما املح الماء وما أحلى الثمر
من فوقه كمن يريد الحبا
تنقصه من جنبه الشمال
يتصل الماء به اتصالا
فوقع الحافر فيما قد حفر

وذلك العنقود في الماء انغمز
مدت اليه يدها أوربا
وآسيا بالجنب كالتصال
وبين هذين ترى القنالا
أنشاه اسماعيل عنوان الظفر

– وماذا تقصد بالحافر ؟ بمن تعرض ؟

– بك !!

وضح التلاميذ بالضحك ، بينما سار شوقى وهو يكتم
ضحكته ، ويسمعه سخرية التلاميذ بزميلهم الذى احمر وجهه
المتفخ خجلا . وعندما انفض الجمع ، تبعه زميله وقد زالت عن
وجهه حمرة الغيظ ، فتلقاه شوقى باسم متسائلا :

– انك تحاول قول الشعر مثلى ، فلماذا لا تقول فى كما

أقول فيك ؟

– أترف لك بالتفوق ، ولكن أصدقنى القول ، الا يوجهك

أحد ؟

– الحقيقة ان الاستاذ الشيخ حسين المرصفى يقرأ معى

كتاب « الكشكول » ويحاول أن ينمى ذوقى . بالأمس كنت أقرأ
عليه صفحات من الكتاب ، فلما بلغت هذين البيتين :

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما

حتى اذا حمى الوطيس رأيت عند اللواء على الخميس زعيما

استخف الشيخ الطرب ، وهو ناقد ذواقة ، وطلب منى أن

أشطرهما ، فقلت :

ومخرق عنه القميص تخاله

ملكنا تم به السماء كريما

يحمى الحمى عف اللواظ والخطا
بين البيوت من الحياء سقيما
حتى اذا حمى الوطيس رأيتسه
نارا على نار الوغى وجيما
واذا القبائل أطبقت أفتيه
عند اللواء على الخميس زعيما

فاستحسن البيتين الأول والثاني ، وارشدني الى مواضع
التكلف من الثالث والرابع ، ثم اقترح على ان اجرّب القول في
الحكمة ففكرت في أبي العلاء وحكمه ، ثم قلت :

قصارى العيش أن يذهب ان حلوا وان مسرا
فان شئت فمت عبدا وان شئت فمت حرا
فأعجب بهما الشيخ ، وحثني على قول الشعر في بعض
الأغراض ، ثم أطلعني على الشعر الذي تضمن هذه المعاني ،
ولفتني الى ما أحسنت فيه وما قصرت فيه أيضا .

اللعن القديم

قطع شوقى الطريق من حى الحنفى حيث يسكن الى باب
الشعرية بعد ان انتقلت مدرسة الحقوق من مقرها بسراى
مصطفى فاضل بدرب الجماميز الى المقر الجديد بدر البدرأوى
الكائنة بشارع سوق الزلط . وكان يفكر فى نصيحة استاذ
« يحيى ابراهيم » أن ينتقل الى القسم الجديد الذى أنشئ
للترجمة . لقد دخل مدرسة الحقوق ، لأن رجل القانون الناجح ،
ينبغى أن يكون بليغ الكلمة ، وبلاغة الكلمة فيها قوة الحججة ،
فليست مواد القانون وحدها هى القادرة على الاقناع ، ولكن ماله
ولهذا ، وهو حى ، فكيف يجابه الجمهور فى قاعات الدفاع ؟ ..
ورجل القانون اجتماعى بطبيعة عمله ، وهو أكثر ميلا الى الانطواء ،
وربما كان أكثر الفنانين على هذا النحو . كأنما خصصتهم الطبيعة
للتأمل والبحث عن ذواتهم . ان ناظر المدرسة نفسه قد رفضه
لصغر سنه ، لولا تدخل الوكيل « يحيى ابراهيم » الذى أقنعه
بتشجيع صغار السن . أما قسم الترجمة ، فيكاد يضمن العمل
لطلابه بعد التخرج ، لأن الحكومة تحتاج الى موظفين تخاطب بهم
قناصل الدول الأجنبية وتكاتبهم ، ومن أجل ذلك أنشئ هذا
القسم ، فالأفضل اذن أن ينتقل اليه .

ودخل فناء المدرسة الذى يموج بالطلبة ، ولكنه وحده الفتى
النحيل الهزيل ، القصير القامة ، وان كان وسيم الطلعة ، بعيون
متألقة ولكنها متنقلة دائما ... اذا نظر الى الأرض دقيقة
واحدة ، فللسماء منه دقائق متمادية ، واذا تلفت صوب اليمين ،

فلا يلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو - مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادىء ساكن واديع ، كأنما يتحدث بنفسه الى نفسه ، أو يتلاغى مع عالم الخيال ، لا يعث مع العابثين ، ولا يلهو مع اللاهين . اذا مشى سمعت لنعله احتكاكا بالأرض يدل عليه ، قصير الطربوش ضيق بعض الشيء ، كبير الرأس صغير القدمين صغر أقدام الأطفال ، مستقيم الأنف مرتفع الأرنبة تخاله أنف أرمنى ، دقيق أصابع اليدين دقة مرهفة تكاد تلحقها بأيدي الصغار (١) . وما أن تقدم فى الفناء خطوات حتى أقبل صديقه « أحمد زكى » ومعه جريدة « الوقائع المصرية » قائلا :

— لقد نشرت الوقائع قصيدتك يا شوقى ، وكنا نحسبها للشيخ محمد البسيونى .

— وما رأيك فيها ؟

— الحقيقة أنها من روح البارودى ، أنظر الى قولك فى مقدمتها :

مركز تحقيقات كميوتور علوم رى

هى الجزيرة فاحذر فتنة النظر
وكيف والحب يأتى غير منتظر
أرض ترى الأسد صرعى فى ملاعبها
فكل ماش عليها راكب الخطر
أهسى وأصيح مشفوقا بروضتها
مقيد القلب فيها مطلق العبر
ما كنت أدرى وأسد الغاب ترهبنى
بأن سكنى الردى فى أعين البقر

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٢٨٢ ، حياة شوقى لاحمد محفوظ

وقد سمعت من قرأها يكبرها ، وكأن الناس قد عادوا
بذاكرتهم الى الحان البارودى وأناشيده التى كان يعزفها لهم
منذ سنوات ، فكم تغنى بالجزيرة وملاعبها ، قبل ان تطوح به
النوى الى المنفى فى أرض سرنديب بعد الثورة ، ليعيش فى موكب
الأحزان على أمل العودة .

– ان صاحب الفضل فى نشرها هو الأستاذ البسيونى .

– انه معجب بك اعجابا لا حد له ، يرى فيك بوادر
مواهب ، وقد أخبرنا كما أخبر كل الفرق المتقدمة أنه يعرض
قصائده عليك قبل ان يرسلها الى الوقائع المصرية ، وانك تشير
عليه بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية ، وحذف هذا البيت
وتعديل ذياك الشطر ، وهو يفتبط بقولك ، وينزل على رأيك ،
دون أن تأخذه العزة بالأثم ، أو تغريه الكبرياء بانكار الفضل الذى
منحه الله للطالب . وأنت تعرف أنه يدرس لنا فنون البلاغة فى
كتاب من تصنيفه ، أما خارج المدرسة فهو مشهور بقصائده فى
الخدوي كلما حل موسم أو أطل عيد ، وهو أمام له فى الصلوات
الا صلاة الفجر . وقد سمعنا أنه تحدث بنبوغك المبكر الى
الخدوي ، وأفهمه أنك خليق بالرعاية .

– نعم ، وقد دعانى الخديو وهنانى بثقة الاستاذ ووعدنى
أن يجد لى عملا فى السراى بعد الانتهاء من دراستى ، كما وعدنى
أن يجد عملا لأبى . ومنذ أيام خرجت راكبا حمارا أبيض الى
وجهة أبغيها ، وقد هطل المطر ، فلما عدت قافلا الى بيتى سلكت
ميدان عابدين ، فأبصرنى الخديو ، وهو فى شرفته بالقصر ، فنزلت
عن الدابة وترجلت فأرسل فى استدعائى ، فلما وصلت تظاهر
بالغضب قائلا : « أليس لى أن أنظر من شرفة دارى حتى تترجل
عن حمارك وتضطرنى أن أنزوى ؟ » قلت : عفوا ، هكذا أدبنا
الأوائل حيث قال قائلهم :

وإذا المطى بنا بلفن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

فقال : انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم ، وهذا اليوم
من أيامكم ، ثم أبلغنى تعيين أبى مفتشا فى الخاصة .

– ان الخديو فى حاجة الى كل صوت ، بعد المؤامرة التى
تزعمها وراحت مصر ضحيتها .

– ضلة زانها الشقاء لمصر .

– ولكنه قد يحاول ان يستغل قلمك .

– أنا لا أبيع قلمى .

– فكيف ترى العرابيين اذن ؟

– لا يلم بعضنا بعضا، ولو لم يستمع عرابى الى رأى ديلسببس،

ما تمكن القوم من احتلال مصر ، فان للجيش أمجادا فى حرب
المورة وكريت وغيرهما ، ولو صنع ذلك لاستحق الحمد والثناء .

– هذا صحيح ، ولكن قل لى ، ما سر هذا الغزل ، هل

أحببت ؟

– قط .

– اذن فهو لحن قديم ، ألم ينهكم المنبى عن الغزل فى مطالع

القصائد حين قال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم

أكل فصيح قال شعرا متيم

– ومع ذلك فهو يبدأ كثيرا من قصائده بالغزل ، وقد

ترسمت خطاه ، أليس نبى الشعر ؟

– ان السنة الخلق أقلام الحق ، ولو صدقت نبوءة الاستاذ

البيسونى ، لكنت نبيا جديدا للشعر .

في فرنسا

عوت الباخرة ، وتكاثر الموج الصاخب ، ثم أقلعت ، وبدأ على ظهرها شاب غارق في ذكرياته سابح في تأملاته ، بين أمسه وغده ، وكلما فكر في الأمس أحس بشيء من الغبطة ولكنها لا تخلو من الحزن الشاحب ، وكلما فكر في الغد ، أحس بالرهبة مشوبة بالأمل . انه يسترجع ذكرى الأيام الأخيرة ، فيمر أمامه شريط من الاحداث ، يبدأ يوم عرف البطالة عقب تخرجه ، ثم وعد الخديو له بارساله الي فرنسا لاستكمال دراسته ، فتخير القانون الذي درسه عامين من قبل ولكنه قرر أن يجمع بين القانون والأدب على قدر ما يحتمل ويطبق .

ويلح يوم الرحيل على ذاكرته الحاحا ، فيذكر والده ووالدته وأخته الكبرى التي تزوجت حديثا ، ويذكر جدته التي أحبها وأحبتة وخيل اليه أنها أكثر الجميع احساسا بالفراق كأنها تتذكر يوم فراقها لأهلها ، فتفجرت كوامن مشاعرها بالغربة ، ولكنه يرتد في لحظة الى حاضره والى غده ، والتعرف عن قرب على الحضارة الغربية أمل كبير ، ولكن هذه أول مرة يركب البحر فيها .

ثم رست السفينة في ميناء « مارسيليا » فانتشبلته من ذكرياته . وخلع الشاب طربوشه ولبس القبعة ، فهو لا يتمسك بالموروث ، ويبقى القديم على قدمه ، ولكنه مستعد لكل ما هو عصري ، ما دام لا يتنافى مع قيمه ومبادئه .

وهناك على الشاطئ ، كان في انتظاره مدير الارسالية ، فرحب به ، وصحبه الى « مونبلييه » وهي مدينة صغيرة حالية

بأشجارها ومبانيها الجميلة ، وكثرة الدعة في أفيائها وهوائها الطيب ، وروحها المفرح ، وما أكثر ما تمنى الهدوء والجمال ، لقد صافته الأيام .

ودخل مدرسة الحقوق بجامعة مونبلييه ، وكان العام الدراسي قد بدأ منذ فترة ، ولكنه كان قادرا على استرجاع ما فات بجهدته ، وهو يعرف ان « قاسم أمين » كان هنا من سنوات قليلة وكان موضع اعجاب أساتذته ، وأن غيره من المصريين ، لم يصرفهم اللهو وبهرجة الحياة عن واجبهم المقدس ، وها هو ذا يضع لبنة أخرى في بناء الجسر الذى يصل بين الحضارتين الشرقية والغربية ، حيث تنصهر المدنية انصهارا قويا فى بوتقة الزمن وتتمخض عن مستقبل أكثر اشراقا للانسانية كلها .

طالما أحب العزلة ، وقد حسب أنه سوف يستمتع بعزلة يبحث خلالها عن نفسه الخصبية التى لم تنبت بعد كل زهورها ، ولكنه أحس بلذعة الحرمان ، فهو ها هنا محروم من الصلوات الأسرية ، يحس بالوحدة الموحشة ، فلا بد أن يخرج من عزلته ويختلط بالطلبة الفرنسيين ، يتخذ منهم الخلان والأصحاب ، وما يكاد يلمح طالبا مصريا ، حتى يدفعه الحنين اليه ، وهكذا أصبح على أبو الفتوح (١) أخا له فتجاورا فى المسكن ، وطاب له الصباح والصحبة ، كما طابت الأيام .

ويمر العام ويقبل الصيف ، فيشتاق الى أبيه وأمه ، ويرغب فى العودة الى مصر ، فهو كالطائر يحن الى وكره ، ولكن طلبه يجابه بالرفض ، ، ويتحير قليلا ، ويتملكه السأم من كل شيء حوله ، غير أن الدعوات ما لبثت أن توالى عليه من رفقائه الفرنسيين ليقضى أياما من العطلة فى ضيافتهم ، ولم يكن أمامه

(١) أصبح وكيلًا لوزارة المعارف ، ومات شابا عام ١٩١٤ ورثاه شوقى .

الا أن يستجيب لدعواتهم ، فماذا يصنع بأيامه ؟ انها فرصة على أية حال يشاهد فيها مدن الجنوب وقراه ، ويتعرف على جوانب من الحياة الغربية لم يسعفه وقته من قبل حتى يراها . وأكثر ما شاقه في تجواله الممتع ، جمال الريف الفرنسى ومعالم الحضارة التى وصلت الى أقصى القرى ، والفلاح الفرنسى فى داره ومزرعته . شتان ما بينه وبين الفلاح المصرى . . خاطر خطر بباله ، ورغم ذلك فهو فى فرنسا يشكو نصيبه من الحياة ، ليته رأى الفلاح المصرى ، اذن لأطبق فمه على شكواه .

وأقبل عام جديد وهو نضو فراق ، ولكن الأحداث تشده شدا ، فما لبث الخديو توفيق أن مات ، وتولى الحكم ولده الشاب عباس حلمى ، وبدأ أنه واسع الأمل يريد أن يكون منكمنا حقيقيا لا دمية فى يد الاحتلال ، ومن هنا بدأت الأمة تتجراً على مناهضة الاحتلال ، كما بدأ أن الحركة الوطنية التى تبناها « على يوسف » فى جريدة « المؤيد » قد لقيت الرعاية ، وبدأت فى الانطلاق .

والتقى بصديقه على أبو الفتوح فوجده أشد تحمسا منه ، يريد أن يصنع شيئا ، وأن يرتفع الى مستوى الأحداث ، يشاركه رأيه فى ضرورة العمل الوطنى . وفكر على أبو الفتوح فى انشاء جمعية تجمع كلمة المصريين ، وتعرض وجهة نظرهم أمام المجتمع الفرنسى ، وراها خطوة هامة فى الطريق الصحيح . فوافق على تفكيره ورشحه لرأسها ، وهكذا تكونت « جمعية التقدم المصرى » بمدينة مونتبلية فى شهر مايو عام ١٨٩٢ . واستمر أعضاؤها يزاولون نشاطهم الى أن نما عددهم ، فطلبوا التصريح الرسمى بوجودها ، وتم ذلك .

ثم أقبل الصيف وتفرق الصحاب ، فسافر على أبو الفتوح

الى مصر ليقضى العطلة ، ورحل هو الى انجلترا في سياحة نظمتها ادارة البعثات في باريس . وتنقل بين مدنها ، فرأى التطور الصناعي الهائل ، والحركة التجارية الضخمة في لندن ، وهو لم يعيش الا في « موبلييه » ، فأحس ان علامات الدهشة قد طبعت ملامح وجهه في هذا التجوال . ولكن جو لندن المتقلب ، والماء بدخان المصانع كان باعثا للضيق ، فلم يلبثوا أن رحلوا الى الشمال حيث قضوا بقية الصيف ، ولم تبق في ذاكرته صورة أشد انطبعا من قصر « وندسور » الذي هجرته الملكة فكتوريا ، فحملة الخيال الى مرقد الفراعنة وقد نقل ما فيها الى المتاحف ، وتساءل عن البنيان الكبير - رمز الماضي - كيف مآله ؟ (١)

ثم يعود الى باريس ، فيستقر بها ، بعد أن انتهت دراسته في موبلييه ، ولا بد أن يستكملها في العاصمة الفرنسية . الا أن وباء الكوليرا الذي انتشر هناك في ذلك الوقت ، افزعه وأطفأ ابتسامة الرضا التي علت شفثيه . . وكيف يحذر المرء في كل خطوة يخطوها وكل شربة ماء يشربها وكل فنجان قهوة يذوقه ، بل كل شيء في كل وقت . واشتد الوباء ، وأصبح الحذر لا يفنى عن القدر ، كل يوم يسقط من حوله الكثيرون ، وينفض الطب يديه منهم ، وتحملهم عربات الموت دون عزاء . وزحف الوباء ، فسقط صريعه بين الحياة وبين الموت . (٢)

انها لحظات يعود اليه وعيه فيها ، فيدرك كم هي حلوة هذه الحياة ، وكم هو بفيض هذا الموت . وتتوالى على مخيلته صور شديدة للتشاؤم ، فهو يدرك ان الموت نهايته ولكن ماذا وراء النهاية ؟ أين ذهب الذين ماتوا منذ بدء الخليقة ، ثم ماذا عن كأس المنية نفسها أمرة هي ؟ ولم يخافها الناس ؟ أحبا في

(١) مذكرات بنتاوير ص ١٧ .

(٢) الشوقيات المجهولة ج ١ ص ١١ .

الحياة أم خوفا من المجهول الذى وراء العدم ؟ ثم تصفو نفسه بعد ركودها فيتذكر قول المتنبي وهو محمود « تمتع من سهاه أو رقاد » .

يقول لى الطبيب أكلت شيئا وداؤك فى شربك الطعام وما فى طبيه أنى جواد أضر بجسمه طول الجمام

وتزداد أوقات اليقظة ، ثم تنقشع الحمى ، فيقوم ضعيفا مهزولا ، ولكن الطبيب هذه المرة كان أكثر ادراكا لنفسية مريضه فنصحته بالرحيل الى أفريقيا ، ليشغله عن نفسه وعن احساسه بالغربة ، فوقع اختياره على الجزائر . وهناك ضمه الجو الشرقى بين ذراعيه ، فاحس بالسكينة خاصة حين رأى اصحاب المقاهى وعمالها هناك من المصريين . واسعده ان يجد حركة عمرانية كبيرة وآثار التمدن والرقى ، بقدر ما ساءه ان يجد مظاهر التفرنج تسرى هنا وهناك ، والاعراض عن اللغة العربية فى البلد العربى . ولكن حظ مصر لا يقل عن حظ الجزائر من تلك السوات ، ألسنا كلنا فى الهم شرق ؟ ان أربعين يوما قد مرت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتوقف فى مسيرها ، وآن له أن يعود الى باريس بعد ان أسترده عافيته ، فما ينبغي له أن يتخلف أكثر من ذلك ، خصوصا وانه فى السنة النهائية ، وليشغل نفسه كلما احس بشيء من الفراغ ، فهو فى باريس المدينة الصاخبة ومركز الحياة الفكرية ، وهو الى اليوم لم يتحرك الا فى دائرة ضيقة ، فلتتسع الدائرة حتى تشمل الحياة .

يبدو أن رد الفعل كان قويا ، لقد كان على شفا الهاوية وها هوذا يعود الى الدنيا ، اليس من حقه ان يترع الكأس ويشربها مع الشاربين ، بدلا من ان يغنى للناس بشعره ويظل وحده خاوى الكأس وهم يملأون ؟ ان اللذات تعرض عليه عرضا شديدا الإغراء

فى هذا المجتمع الباريسى الصاحب ، وهو شاعر فنان رقيق
الاحساس مرهف الشعور ، لا يقوى على ضبط نفسه أمام
المفريات ، فى « غاب بولون » وفى غيرها ، ولكن ضميره الدينى ،
لا يدعه أبدا يهنا باللذة الخالصة ، فهو دائم الحيرة ، موزع
النفس (١) .

ويسوقه وجدانه المصرى الى المتاحف ومناطق الآثار ، هنا
متحف اللوفر ، وهناك البانتايون حيث يرقد نابليون ، وهذا هو
قصر فرساي بتماثيله العديدة وحدائقه الضخمة ، ولكن أروع
ما فيه هو رواق المرايا ، فرسوم السقف تحكى فى أسلوب ملحمى
سنوات الانتصار أيام لويس الرابع عشر . ما أجدرنا اذن أن
نسجل انتصارات المصريين فى هذا النفس الملحمى . ان آثار مصر
لا تفارق ناظره ويلج عليه نفس السؤال لا يبرح مخيلته ، ماذا
بقى لنا فى حاضرنا من هذا الماضى العجيب ؟

ان الامير الشاب يبدو وطنيا متحمسا ، ولكن العمل
السياسى ينبغى أن يسهم فيه كل فرد على قدر ما يستطيع ،
فهو مثلا يستطيع عن طريق الكلمة أن يؤدى دوره وقد يكون
هذا الدور مباشرا فى اثارة انفعالات الجماهير ، وقد يكون غير
مباشر فى عرض الماضى المجيد الذى نسيه الناس بأسلوب جديد .
أو غير ذلك من ضروب التعبير وحمل أمانة الكلمة ، وهو هنا فى
فرنسا لا يقوى على اثارة الجماهير حتى لو حاول ، فليس أمامه
الا الطريق الثانى .

وانتشلته من هذا التفكير كله ، دعوة صديقه على أبو الفتوح
الى مواصلة الكفاح فى « جمعية التقدم المصرى » ، والعمل على
انشاء فروع لها فى باريس وفرساليا وجنيف وغيرها ، حتى تضمه

(١) شوقى وشعره الاسلامى (راجع الفصل الثانى) .

كافة القوى الوطنية ، والتفكير في اخراج صحيفة باسم الجمعية تعبر عن أفكار الاعضاء وتكون لسان حالهم ، وعقد الاجتماعات والدورية لتبادل الآراء . انه تفكير واع من هذا الشاب الصاعد والوطنى المتحمس الغيور .

وصدر العدد الأول من مجلة « التقدم المصرى » فى ١٩ مارس سنة ١٨٩٣ يصور الخطوات الأولى للجهد الكبير ، تحت عنوان « جمعية التقدم المصرى » : (اسم جمعية تأسست بمدينة موبيليه من أعمال فرنسا فى شهر مايو سنة ١٨٩٢ بهمة الوطنى المناضل على أبو الفتوح أحد طلبه الحقوق بتلك المدينة . . آلى على نفسه أن يعمم هذا المشروع الجليل بين جميع المصريين بفرنسا ، فتشعبت هذه الجمعية فى أهم نقط فرنسا . فانشىء لها فروع بباريس ، تحت رئاسته رب القريض وأخى الأدب سبحانه الفصاحة وقس البلاغة أحمد أفندى شوقى المصرى « أحد موظفى السكرتارية - ادارة التحريات الخديوية - ونزيل باريس الآن ، . ووكالة اللوذى الاديب الشيخ محمود أبو النصر المصرى من متخرجى مدرسة دار العلوم الخديوية ، ومدرس العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس الآن ، وكلاهما من الوطنيين المشهود لهم بقوة الباع ، وسعة الاطلاع ، وآخر بفرساليا وثالث بجنيف وهلم جرا) . وتوالت اعداد المجلة ، تحكى قصة نجاح الجمعية وأعضائها فى المجال الوطنى وفى مجال الدراسة ، وتحكى عن اجتماعات الجمعية المركزية ، وحضور مصطفى كامل بعض هذه الاجتماعات أثناء وجوده بفرنسا ذلك العام . لقد لفت الانظار اليه بكلمته النارية وتوطدت صداقته بشوقى منذ ذلك الحين .

ولكن البلابل لا تكتفى ببناء أعشاشها ، فلا بد لها أن تصدح بالنشيد ، وهكذا أرسل شوقى الى « الأهرام » قصيدة بعنوان : تهنئة بشهر الصيام « مليئة بالمغماز ارتفع فيها صوته الى

السماكين ، كأنما يدرك ان بينه وبين قرائه مدى شاسعا ، فلن يستمعوا اليه اذا ما انطلق صدره بكلماته الحائرة ، ولكنهم يصغون اليه اذا ما طفى صوته على صرير الاقلام ، وأصوات السمار ، وملق المنافقين . ان الكلمة القوية المتفجرة تطرد اغراء النوم ، فلتكن كلماته باعثة لليقظة ، وتلك رسالة القلم في يده .

هذه مصر جاءها الدهر يسعي
وهو يا طالبا جفائها وصدا
ليس للدهر من وفاء ولكن
هاب فيها العباس أن يستبدا
صاحب النيل للبريه أيه
حرد النيل للبرية وردا
وارفع الصوت ان عسرك حر
لن يرى من سماع صوتك بدا
انما الملك ان تكون بلاد
وتصيب البلاد بالملك مجدا
ومر العلم ان يزور بلادا
عهدتها له الخلائق مهدا
قل لراج ان يستترق يراعى
انا لا اشترى بذا التاج قيذا
نومة السيف قد تكون حياة

ورأيت اليراع ان نام أردى (١)

وتتنوع أنعام أناشيده ومعزوفاته من القوة الخطابية الى الهمس التصويرى ، ومن مجال السياسة والآثارة الى مجال

(١) الاهرام ١٨/٣/١٨٩٢ .

المجتمع والتنبيه ، فالقضية ليست قضية جلاء وحسب وانما هي اضعف بكثير ، أنها قضية الشعب كله وتحرره من الاستبداد والفقير والجهل ، وليس في مصر من اعطى كل شيء وفقد كل شيء سوى الفلاح الذي روى الأرض بعرقه ودموعه ، فيغنى له :

كانها قصيدة منمقة
بعولجان المجد والاكيل
شريف قوم شاكى الحسام
أمامه الأموال فى زنبيل
وسائل منحذب القوام
فى كيسه محصوله المباح
تفيد ما تعي بها الاشارة
فيكم ، والشريف انى القائد
لاجلكم فريضتى ونفلى
انا عليكم حيث انى الرابح
والسائل المكذوب استعطيتكم
اطعمكم جميعكم من حسبى
وليس عندى لكم جميل (١)

قد مثلوا فى صورة مزوقة
رسم مايك محكم التمثيل
وتحتنه فى سلم المقام
وكاهن يلبسه اسرايلى
وعسكوى شاهر الحسام
وتحتهم جميعهم فلاح
ودون كل صورة عبارة
يقول فيها الملك انى السائد
والكاهن الثانى انا اصلى
والاسرايلى يقول الراجيح
والعسكوى انى احميكم
ويضرع الفلاح حسبى ربى
ينهكنى حواكم التقييل

انها ملكة الشعر التى أسرت لبه وآن له أن يفرغ لها بعد أن كان موزع النفس فى كل اتجاه ، فقد انقضى العام الدراسى ، وظفر باجازته الدراسية ، وأبى عليه الخديو الجديد ان يعود الا بعد ستة أشهر يفرغ فيها لدراسة الحياة الأدبية فى فرنسا . وقد تفرق رفقاؤه فى الجهاد فمن راحل الى أوروبا ومن ذاهب الى مصر فليس أمامه اذن الا الشعر .

(١) الشوقيات المجهولة ص ١٤/١٥ .

كان مقهى داركور فى ميدان السوربون بالحى اللاتينى ،
هو مكانه المفضل ، حيث يقرأ دائما جريدة « الطان » وفى هذا
المقهى التقى مرات بالشاعر الفرنسى الشهير « فرلين » الذى كان
لا يكف عن الشراب لحظة ، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه
فلا يعنى بمسحها ، ويمر به طلبية السربون فيحيونه برفع قبعاتهم
ولكنه لا يشعر بهم فهو دائما مستغرق فى ذهوله سابح فى خياله .
أنه شاعر رمزى غارق فى الدهول وفى الغموض معا . أليس شعر
الفرددى موسيه الرومانسى الحالم أكثر تأثيرا فى نفوس الشرقيين
ومع كل هذا فهو لا يستطيع ان يكون نسخة من غيره أنه يستطيع
التجديد ولكن فى تودة فالطفرة غير مستحبة وقد سبق له ان حاول
ذلك حين ارسل قصيدته « خدعوها بقولهم حسناء » فلم تنشر .
فتأكد لديه ان المجابهة بالجديد لا يطاق لقاءها وتؤخذ باطراف
البنان . ان الجديد فى الموضوع ممكن بل واجب أما فى الاطار وفى
الاتجاه فتلك مسألة أخرى . ومن أجل ذلك تقبل الناس الحكايات
على السن الحيوان ، التى نظمها للاطفال فقد اهمل الشعراء العرب
باب الأطفال اهمالا ، بل لقد تركه كل الأدباء فى وطننا مغلقا . ان
« لافونتين » هو أستاذة فى هذه الحرفات الرمزية ، ولكن رمزيتها
من لون كليله ودمنه ، ولهذا تقبلها القراء . فالأطفال يرونها قصصا
ممتعة والعارفون يدركون مغزاها السياسى . فحكاية « الهندى
والدجاج البلدى » التى نشرت بالأهرام من الناس لم يدرك ان
الهندى هو الاحتلال أو هو المستعمر الذى تذرع بنشر رسالة المدنية
ليستولى على « بلدى » ثم يضحك من سخف الذريعة وتصديق بعض
الناس .

انه يشعر ان الطبيعة قد حبتة مواهب لا تقل عن مواهب
الكثيرين من شعراء فرنسا وهو يستطيع ان يطرق بهذه الموهبة

بابا آخر أكثر اتساعا وأشد أغراء . لم تخف عليه مكانة المسرح وشعرائه قديما وحديثا أمثال عباقره اليونان سوفوكليس واريستوفان ويوريبيدس ، وعباقره فرنسا المعاصرين له : اسكندر ديماس الابن (٢٤ - ١٨٩٥) واميل أوجييه (٢٠ - ١٨٩٩) وكلاهما من كتاب الرواية الموضوعية ، ثم عاهل المسرح الفرنسى فكتوريان ساردو (١٨٣١ - ١٩٠٨) وهنرى بك (٣٧ - ١٨٩٩) زعيم المدرسة الواقعية فى المسرح الفرنسى واميل زولا (١٨٤٠ - ١٩٠٣) زعيم القصاصين الطبيعيين وغيرهم . وهو يذكر أن صديقه عثمان جلال ترجم ونشر أربع روايات من نوع الكوميدي عن مولير الى الرجل المصرى ، ولكن الترجمة فى الفن لا توافق مزاجه الخلاق ، فهو لم يترجم بعد قصيدة البحيرة للامرتين ، الا أبياتا قليلة ، وأكبر همه بعد أن شاهد من مسارح فرنسا الاوديون واللوفر والكوميدي فرانسيز وغيرها ان يكون لمصر مسرحها .

ان كتابة المسرحية ليست عملا هينا ، ولولا ان موهبته تسعفه لما استطاع بعد قراءته الطويلة فى تاريخ الممالك ان يعرض عرضا مسرحيا ، للأخلاق الانسانية فى أوقات المحن عندما اختار « على بك » موضوعا . لقد حاول ان يوفر للمسرحية بواعث الصراع الداخلى حين جعل « مراد بك » يتدله بحب « اقبال » زوجة أميره ، ثم يكتشف فى النهاية انها أخته ، بيعت فى سوق الرقيق مثلما بيع هو من قبل . غير ان توالى الاحداث يكاد يفقده القدرة على الالتفات للشخصيات كما ينبغى ، لكنه على أية حال ، قال ما يمكن ان يقوله . واستعان بعنصر السخرية المسرحية ليضفى على الاحداث الجادة لونا من الطرافة والتشويق ، وذلك بادخال شخصية « عثمان بك » الذى كان عينا للدولة العلية يتآمر مع الباشا ضد محمد بك وعلى بك ومراد بك ، وهم

لا يعلمون . ان ذلك يجعل الجمهور يشارك في صنع مصير الأبطال ،
أو يشعر بهذا الشعور ، لأنه يعلم الحقيقة بينما الأبطال يجهلون بها .
ثم استغل موسيقى البحور العربية فتخير البحور الطويلة لتصوير
العواطف وسرد الحوادث ، والخفيفة السريعة في المواقف المرحية .

ماذا أخذت منه فرنسا وماذا أخذت منها ؟ .. لقد أخذت
أحلى أيام شبابه ، ولكنه أخذ منها علما وفنا . واذا كانت أيامه
هناك قد آذنت بالغروب وأن له أن يرحل فهو لم يعد في حاجة
ملحة الى البقاء ، والحنين الحزين أنشودة رائعة تلهب حناياه .
ليس عليه الا أن يودع صديقيه « شكيب راسلان » و « علي
أبو الفتوح » ، قبل أن يحزم أمتعته ثم يلقي على باريس نظرة
الوداع ، ويستقل الباخرة في رحلة العودة . ان أنين الباخرة
وصراخ المودعين لا يبعث الشجي الى نفسه هذه المرة ، بل يرده
ردا الى وطنه ، وعندما صافح وجهه نسيم الاسكندرية ، أحس
بسعادة غامرة .

مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم راسلاني



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامى

الباب الثانى

القفس الذهبى

فى القصر

رجع شوقى الى مصر ، ليعيش فى القصر معيشة رتيبة « بقلم الترجمة » فلم ترج سوقه لدى الخديو عباس لأنه كان يعتقد أن رجال السياسة ألزم له فى فترة الصراع التى بدأها مع كرومر ، وشوقى شاعر ، فبالله ماذا يستطيع ؟ ألم يكتب محمد عثمان جلال على باب غرفة على الليشى شاعر جده اسماعيل منذ سنوات قليلة : « انما نطمعكم لوجه الله ؟ » .

ومما يزيد فى قنوطه أن كثيرين من الأزهرين الذين لا يتصورون عائدا من أوروبا يقوى على ابداع ذلك المستوى من الشعر ، يغطون بأن الشيخ زكى سند هو الذى يعينه على النظم . ولكن لماذا هذا الزعم ؟ لأنه يستكن بدار أبيه فى حى الحنفى ، والى جواره يقيم الشيخ زكى مؤسس جماعة مكارم الأخلاق ؟ انه يلتقى به كل صباح حيث يذهب الى عمله بسرارى عابدين ، ويتجه الشيخ الى مدرسة اليسوعيين ، ولكنهما قلما التقيا بقية اليوم لأن دنيا الشيخ غير دنياه (١) .

انقضى عام أو كاد ، ولا جديد ، اللهم الا قرار الحكومة بايفاده الى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى مدينة جنيف ، مندوبا عنها . انها على أية حال فرصة يخرج فيها من الركود ، ثم أسعفته بديهته فى القيام بعمل كبير . ألم تتضح الشخصية المصرية من خلال الأحداث على مدى القرن كله ؟ ان جذورها ممتدة فى أعماق التاريخ الفرعونى

(١) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٤ ، ٣٨٣ .

والعربي معا . ترى هل تقوى كلمة نثرية على التعبير عن كل هذه
المشاعر ؟ فلتكن مطولة شعرية تحكى مسيرة التاريخ فى مصر .
أليس تاريخ الأمم هو الدعامة التى تستند اليها فى أيام المحن ؟
أليس مجدها الغابر باعثا لها من غفلتها ؟ من هذه الزاوية ينبغى أن
ينطلق فى مطولة فيواكب الأيام منذ الفراعنة .

وبدأ يقرأ الكتب العربية والأوربية التى درست هذه الأزمان .
ومن الطبيعى ألا يكون الأمر هنا أمر موهبة شعرية وحسب ، فهو
دراسة تاريخية قبل كل شىء ، يلم بسير الأحداث وانطباعاتها التى
تركتها من قصص شعبى ، حتى لا تكون القصيدة منظومة تاريخية ،
فهى تحليل يستند الى روح التاريخ ، أما قبل ذلك أو بعد ذلك فهو
لا يستطيع أن يخلصها ولا ينبغى من بصمات شخصيته ، وهكذا
يأخذ الفن من التاريخ ويعطيه أيضا :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن ثقل الرجاء

هكذا بدأ يترنم وهو منفعل بعالم البحر الذى يراه بلا نهاية ،
والأمواج عالية صاخبة ، ترفع السفينة كأنها تسير فى السماء ،
وتتصل اللجج كالهضاب فى رمال الصحراء المنبسطة ، تتبدل وتتغير
كل حين وكل صباح .

وعندما وصل خاطره الى الصحراء توقف ، أليس فى صعود
السفينة وهبوطها ما يذكر بالناقة وحدا العربى ؟

ضرب البحر ذو العباب حوا
ليها سماء قد أكبرتها سماء

لجة عند لجة عند أخرى
كهضاب ماجت بها البيداء
نازلات في سيرها صاعدات
كالهوادي يهزهن الحداء

وتوالت على خياله الصور ، يزحم بعضها بعضا . . عبقرية
الفراعنة وما شيدوه ، وما علموه للدنيا ، فاذا كان هناك من
المؤرخين من يهاجم هذه الصفحة المشرقة ، فما أجدره أن يقف
موقف المنصف . ولكن تاريخ الفراعنة لا يخلو من صفحة عرفوا فيها
مرارة الهزيمة وان كان الى جوارها صفحات ذاقوا فيها حلاوة النصر ،
وما أشبه ذلك ، بالاحتلال البريطاني ، انها فرصة ينفذ منها :

ان ملكت النفوس فأبغ رضاها
فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسر
فكيف الخلائق العقلاء ؟

الواقع أن موضوع «قمبيز» الفارسي يصلح قصة قائمة بذاتها،
فيها روعة الالباء ، وفيها جلال المواقف ، وفيها القوة الانسانية
والضعف الانساني . وأي شيء أجل من أن يرى فرعون ابنته تمشي
في السلاسل وقد أزعج الدهر عريها وهي أسيرة ، فلا يبكي وانما
هو أبى اباء ابنته ، وانما يبكي رحمه بصديقه وقد رآه بعد العز
يستجدي .

ويتوقف التاريخ ، وينطلق مع أحاسيسه ، فاذا موجة أثر

أخرى تطفو حاملة معها قبسا من روحه الدينى العميق فى حناياه ،
ذلك طابعه ، لا بد أن يثبت وجوده ، كلما جاء ذكر الله فى خاطره ،
فما عبادة الفراعنة وغير الفراعنة الا الرموز التى اتخذتها العقول فى
صباها ، وهى تبحث عن الحقيقة الكبرى ، عن الرب ، قبل أن يهديها
الانبياء .

وتتواكب صور التاريخ مرة أخرى ، انه تاريخ الاسلام واعلامه ،
من عمرو بن العاص الى صلاح الدين الايوبى ، بل هو تاريخ الفداء ،
وإذا استوى الموت والحياة ، فليس للذل حيلة فى تلك النفوس .
وأحس ان القصيدة طالت ، فثلثمائة بيت تبعت الممل الى السامع فى
المؤتمر ، فلتكن اذن لمسات خاطفة يعرض فيها لنابليون وطيشه ،
واستهزاء الاهرام بجنوده كأنما تدرك نهايته القريبة فى «واترلو» .
حتى اذا وصل الى قناة الستويس هزته النكبة ، انها ضلة زانها
الشقاء المصر ، وليس من ملوم «أيها القوم كلكم أبرياء» . وتنتهى
القصيدة بصورة للخيديو الشاب والشاعر الشاب الى جواره :

يا عزيز الانام والعصر سمعا
فلقد شاق منطقى الاصغاء

ان عصرا مولاي فيه المرجى
انا فيه القريض والشعراء

ان أحدا لم يلتفت اليه ، وبقي اللغظ ، كما هو . ما أشقى
الفنان وما أتعس حياته ، انه يغنى للناس منذ سنوات ، فيسمع
الناس الغناء ولا يكلف أحد نفسه بأن يرفع بصره الى المغنى ، حتى

إذا ما احترق تماما بدأوا يبصرونه ، ولكنه كالبلبل لا يملك الا
التغريد في أفراحه وأحزانه . ولو التفت اليه الخديو لصفق الناس
له ، فليس أمامه اذن الا المديح ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، تاريخ
المتبنى والبحتري وغيرهما ، ومع ذلك فالنقاد يلومون شعراء المديح ،
ماذا يصنعون اذن ؟ يتضورون جوعا ، ويقبرون فنههم ؟ ان الناس
لا تكاد تلتفت الا الى شعراء الملوك والامراء ، والنقاد أنفسهم قلما
التفتوا الى غيرهم ومع كل هذا يلومونهم . « كم خلت الجيوب ، وكم
شكوت المز » ومع ذلك فالناس يحسبون شوقى قد ولد وفى فمه
ملعقة من ذهب . لولا نمزار لعرف شوقى البؤس والشقاء ، ان
رحمة الله هى التى قيضت له هذه الحاضنه ، فعاش أشبه باليتيم
وأبوه ما يزال على قيد الحياة . لماذا يا أبى اسرفت على نفسك وعلى
ولدك ، لماذا بددت ثروة أبيك فى طيش الشباب ، ولكن الحسرة
لا تنفع ، أحقا أردت لولدك أن يعيش من عرقه وألا يرتزق من
الموتى ؟ هاهو ذا ولدك يعيش فى خط الحنفى ، ويذهب كل صباح
الى عمله ، فلا يكاد يكفيه راتبه ، ثم ينظم كل مساء للناس وللخديو ،
ويقبض على الهواء ، فماذا يصنع ان تزوج ؟

أنا لم أغنم من النا س سوى فنجان قهوة
أنا لم أجز عن المد ح من الاملاك فروه
أنا لم أجز عن الكتب م ن القراء حظوه
ضيع الكل حياىى وعفانى والمروه (١)

ولكن ما له ولهذه الاشجان ؟ ألم يقرر أنه سوف يركز على

(١) الشوقيات القديمة ص ٢٠٥ .

المديح ؟ لقد كانت قصيدته الماضية وصفية ، عرض فيها صورا من «المنتزه» قصر العباس بالاسكندرية وما فيه من ألوان الابهة ، غاباته التى تهزأ بغابات البوسفور وبحيرته التى تنسى «لامرتين» البحيرة الشهيرة ، والطيور والحيوان التى تطوف بالبحيرة وتمرح فى الغاب والجوارى والمباني . . . فلتكن قصيدته هذه فى العام الهجرى الجديد بعيدة عن الوصف ، عامرة بالمديح الخالص ، ولكنه لا يملك الا أن يعرض لحقوق وطنه :

أبا الحيارى ألا رأى فيعصمهم
فليس الا الى أرائك الهرب
باتوا يرجون لما طال بؤسهمو
والنفس عند اشتداد الخطب ترتقب
هيهات يبصر ملك لا منار له
ولا منار اذا لم يرفع الادب(١)

يبدو أن الانظار قد بدأت تلتفت اليه فعلا ، فالشعر السياسى ينبغى أن يواكب المعركة ويقوم بدورة فيها ، وقد يفشل الرجل السياسى فيما ينجح فيه الشاعر خاصة فيما يتصل بمشاعر الجماهير وعواطفهم . ان بطرس غالى وبشاره تقلا ومصطفى كامل ، قد نبهوا الخديو الى ذلك ، بل لقد عرض بطرس غالى على الخديو أن يسمح له بتوظيف الشاعر فى الخارجية بضعف مرتبه الذى يتناوله من قلم الترجمة فى السراى ، وعرض بشاره تقلا عليه مثل هذا العرض ليقوم بتحرير الاهرام .

هكذا بدأ الخديو يدرك قيمته ، ولو لم يصنع لكان له فى جريدة الاهرام متسع ، ولكن الخديو قد أولاه كثيرا من المهام التى

(١) الشوقيات القديمة ص ٥٨ .

قام بها خير قيام ، فمنحه ثقته ، وبدأ يقدمه على كل رجاله .
فما أعجب الأيام ، لقد كان منذ حين يوسط صديقه أحمد زكي عند
رئيسه حمزه فهمي ، وتدور الايام ، وها هو ذا حمزه فهمي يوسط
أحمد زكي عنده (١) .

بل ان الاعيان يوسطونه كما يوسطون على يوسف أو مصطفى
كامل ، للحصول على الرتب والنياشين ، وهي في واقع الأمر تجارة (٢)
فاذا كانت تجارة شائنة ، ففيها ربح عظيم للجمعيات الخيرية
والملاجيء وكل المؤسسات المقامة للرحمة بالانسان . فلولا الاموال
المأخوذة من هذه التجارة ، ما تبرع الخديو لمحتاج بقرش واحد ،
ولما قرأ القارئ في صحيفة سياره « تبرعت الحضرة الفخيمة
الخديوية بمبلغ مائة جنيه للجمعية الخيرية الاسلامية أو لغيرها من
مؤسسات البر » . فأى ضير في أن يأخذ شاعر الامير من الخديو
بعض أموال الاقطاعيين المتهافتين على الالقب ؟ انه ينفق أكثرها على
نفسه يعوض أيام الحرمان والباقي على المعوزين . وعلى يوسف ألا
يأخذ بعضا من تلك الاموال ثم يطلب المزيد ؟ لقد كلفه الخديو أن
يطلب معونة لصحيفة المؤيد من أحد اعيان المنوفية ، وهو رجل
يتجرق بخلا ، يعطى القليل بعد مشقه وجهد ، بينما يعطى عمر
طوسون لصحيفة اللواء في سخاء . لعل ذلك هو الذي دفع على
يوسف الى احتضان الشاعر حافظ ابراهيم نكاية في شاعر الأمير
ظنا منه أن شوقي هو الذي يقترح أسماء المتبرعين (٣) .

لقد أصبح صديق الخديو ونجيه ، ومكانته في هذا المقام
لا تختلف عن مكانة المتنبي لدى سيف الدولة والبحترى لدى المتوكل

(١) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٤ ومابعدها .

(٢) أعمالى بعد مذكراتى لأحمد شفيق ص ٤١١ .

(٣) حياة شوقي لأحمد محفوظ ص ١٤٩ .

وأبى نواس لدى الامين ، بل ربما تزيد . ألم يعلم بأن شاعره لا يدع الكأس فارغة ولا يطيق أن يراها مليئة ، فتغاضى عن ذلك ، ولم يزد على أن قال «أبو قارورة» ؟ ألم يتبسّط معه ويعاتبه لانه جلس في المقعد الامامى بعربته وكان ينبغي أن يجلس فى المقعد الخلفى الى جوار ولده حسين لانه شاعر الامير ؟ بل ألم يزره فى بيته ، وكان فى ذلك الوقت يحاول نظم احدى قصائده فى مدح الرسول ؟ انه يذكر هذا اليوم جيدا ، ويذكر انه أحس بقوة عليا تؤيده بعد مدحه للرسول ، فقال على الفور :

يا ليلة القدر التى بلغتها
 ما فيك بعد اليوم من مراتب
 ما كنت أهلا للنوال وانما
 نفحات أحمد فوق كل حساب
 لما بلغت السؤل ليلة مدحه
 بعث تحقيق الملوك علوم يعظمون جنابى

بل ان منزلته شفعت له عنده ، عندما تخلى عن الحج معه ، واختبأ فى منزل أحد أصدقائه « بنها » ، فبحث عنه الخديو دون جدوى ، ثم اعتذر له حين عودته بأنه لا يقوى على ركوب الابل . ومن الحق انه قد ندم واستغفر الله كثيرا ، ولكن صحته لا تتحمل مشقة الرحله ، انه يضحك ويأسف كثيرا عندما يذكر هذا الموقف (١) ، ثم كتب قصيدته «الى عرفات» وهو منفعل بكل هذه الاحاسيس .

ولكن هل سكت الناس عنه ؟ لا ، فهم يقولون ان البلبل قد احتواه القفص الذهبى ، ويذكرون مدائح ، ثم شعره فى الحفلات الراقصة التى يقيمها الخديو فى قصره . هم يطربون حقا ، ولكنهم

(١١) أبى شوقى ص ١١ .

يأسفون ويمطون شفاههم ثم يرددون « شاعر النيل غوى » ، لقد
أطربتهم دون شك أبياته التي قالها في حفل عابدين على الوزن الذي
اخترعه البارودي :

مال واحتجب وادعى الغضب
واطربته كما أطربتهم منظومه حافظ والبشرى الفكاهية من
نفس الوزن التي داعبا بها قصيدته ، فكان أحدهما ينظم شطرا
والآخر يكمله وهما يسيران ذات يوم على النيل ، حتى أتيا نظم ستين
بيتا من هذا اللون الشعبي المحبب :

شال	وانخبط	وادعى	العبط
ليت	هاجرى	يبلع	الزلط
عتبه	شجى	حبه	غلط
كلما	مشى	خطوة	سقط
ان	أمنيره	فى	الهوى شطط (١)

والنقاد يطربون أيضا ، ولكنهم يشيرون بأصابع الريبة لشعره
فى السلطان ، كأنه وحده الذى مدحه ، أو كأن الدماء التركية التى
تجرى فى عروقه مختلطة بالدماء العربية ، هى الدافع الاول له ،
وينسون أن «عبد الحميد» هو خليفة المسلمين ، والداعى للوحدة
الاسلامية ، والواقف كالصخرة أمام مطامع الدول الاجنبية . ومن
الغريب أن كل الاحداث والقضايا الاجتماعية تهزه وينفعل بها ويقول
فيها ، فأقل شعره فى المديح وأكثره فى مواقف الحياة . ألم يكتب
فى حريق ميت غمر ، بل سافر الى ميت غمر ليرى بنفسه آثار
الدمار ؟ ألم يكتب فى انتحار الطلبة وفى الوثام بين عنصرى الامه

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٩٢ .

المسلمين والمسيحيين ؟ ألم يكتب فى المداخل النبوية مهاجما مزاعم المبشرين ومن يسرون فى فلکهم وموضحا مواقف الاسلام المشرقة فى جوانب الحياة كافة ؟ ألم يغن لنفسه ولهم فيصور الطبيعة المصرية السمحة ، ويردد أناشيد الغزل ؟ ألم يكتب فى التاريخ والآثار فيحكى مجد الماضى ويجلو روعته ؟ بل ألم يكتب فى كل موقف سياسى ؟ انهم يشيرون دائما الى حادثة دنشواى وكيف صمت عاما كاملا حتى قال فى ذكرى الحادثة . ولكنهم ينسون أنه كان فى الخارج مع الخديو(١) ، فلم تصله أنباء الحادثة الا مشوهة موجزة ، لا تثير انفعال شاعر ، فلما عاد كان الكاتب القصصى طاهر حقى قد بدأ ينشر رواية « عذراء دنشواى » فى حلقات متتابعة بجريدة المنبر ، ابتداء من ٦ يوليو ١٩٠٦ ، وأهدى المؤلف روايته الى أمير الشعراء ، فماذا صنع أمير الشعراء ؟ لقد كتب الى الاديب خطابا مفتوحا يعبر فيه عن موقفه .

« اطلعت فى المنبر المتصل ان شاء الله تعالى بالجوزاء ، على فاتحة رواية باسم (عذراء دنشواى) ، رأى حضرة واضعها الفاضل تلطفا منه واحسانا أن يهديها الى ، ورأيت أن أعتذر على أعواد المنبر من قبول الهدية ، وأن أنفض يدي من عذراء نشأت بين حمام كم جلب من حمام . وبين اجران كم جرت من أحزان . ولو سألتنى حضرة المؤلف رأى قبل أن ينشر ما نشر كما هو مألوف فى مثل هذا المقام لدلته على من هو أحق منى بحسن ظنه كعشماوى ، أو نابغة المحامين الهلباوى أو غيرهما من جنود الحادثة وشهود الكارثة ، والسلام»(٢)

ثم ألم يقل بعد شهور أبياته العنيفة ، حين رقى أحمد فتحى زغلول الى وكالة وزارة الحقانية بتوجيه اللورد كرومر ، وهو أحد

(١) وطنية شوقي للحوفى ص ١٤٣ .

(٢) الشوقيات المجهولة ج ٢ لمحمد صبرى ص ٤٣ .

القضاة في المحكمة المخصصة التي شكلت لمحاكمة أهل دنشواي .
فلم يعبأ بالصلة التي بينه وبين سعد زغلول ، وأرسل هذه الابيات
الى الحفل الذي أقيم لتكريم وكيل الحقاينة ، بعد أن ألح منظمو
الحفل عليه أن يشاركهم بقصيدة :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتم
بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تقرأوا شعري عليه فحسبه
في الشعر حكم خطه بيمين
ولا تنشروه في (شبرد) بل انشروا
على ملاء في دنشواي حزين (١)

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

كرمة ابن هانىء

عندما يفكر الشاعر فى الزواج يحلم بالربيع الدائم ، انه فى عينه الخضرة الممتدة مهما تساقطت الاوراق فى الخريف ، والدفء ان عز فى قسوة الشتاء ، والنسيم اذا توقد لفح الهجير . ما أعجب أن يفكر الرجل فى المرأة على أنها شيطان ، ويفهم أن الزواج شر لا بد منه ، وبهذه المفاهيم يبدأ حياته الزوجية . وما أعجب أن يصور آخرون يدعون أنهم فهموا الحياة - الرباط المقدس على أنه صفقة تجارية لا أكثر ولا أقل . ولكنه فنان والفنان لا يبيع حرينته مقابل شىء حتى ولو كان السكن والطمأنينة والاستقرار . ان الامر هنا يرجع الى تربية المرأة وفهمها لوظيفتها المثلى فى الحياة ، فليبحث عن النشأة والاسرة قبل أن يفتش عن المرأة .

وماله ولكل هذا وأمامه جاره حسين شاهين التركي الاصل ، الذى يتلهف الشباب على الزواج من بناته وهو يتأبى ، لانه يدرك انهم يخطبون الثروة ، أتراه يردوه لو تقدم ؟ انه ليس عاطلا بالوراثة حتى يصمه بما وصمهم به ، وليس نكرة حتى يتعالى عليه ، وليس محتاجا حتى بطمع هو فى مال غيره .

ان أحمد عمر المهندس يسعى للزواج من احدى بنات الرجل ، ولن يكون هو أقل جراً منه . وعندما يتم ذلك ، فسوف ينتقل بزوجه الى «حلوان» ، فهى ضاحية هادئة وما أحب الهدوء الى نفسه ، خاصة وأن النيل يحددها ، وهل هناك شاعر مصرى لم يتغن بالنيل ؟

وهكذا أقبل عام ١٨٩٥ ، وقد تزوج شوقى وانتقل الى حلوان . وهو سعيد بحياته الجديدة ، فالقطة التركية (١) لم تتعود حتى أن تموء ، وانما تعودت أن تهيبىء كل أسباب الهناءة لزوجها رغم ما يصدر منه أحيانا من تصرفات فيها كثير من الشذوذ ، فمعه أصدقاؤه دائما على الغداء ، بينما تأكل هى وحدها ، ومعه أصدقاؤه دائما على العشاء ولكن خارج البيت . وهو يجلس معها ولكنه دائما سابع فى خيالاته ، ثم لا يلبث أن يندفع خارجا دون أن ينبس بكلمة ، هكذا اعتاد وهكذا اعتادت ، وما ينبغى لها أن تحمل هذه التصرفات فوق ما تحتمل ، فهو شاعر . ولكن السعادة لم تكتمل ، وهل تمنح الدنيا أحدا بغير حساب ؟ لقد مرض والده ، وحير مرضه الاطباء ، كما حير ولده الرقيق المرهف الاعصاب ، انه لا يدخر وسعا فى سبيل رد العافية الى أبيه ، حتى لو جمع أطباء مصر كلهم ، وقد طلبوا اليه أن ينقله الى ضاحية جافة كالزيتون ، فأثث له بيتا ونقله اليه . أترأه يحتمل الصدمة لو لحق نزار ؟ أن زوجه المسكينة على وشك الوضع ، وهو مشتت الفكر حائر اللب بينهما . أضحك أم يبكى؟ أيهش لاستقبال المولود ، أم يجهدش لوداع الراحل ؟ فى نفس اللحظة التى وارى فيها والده التراب ، وضعت زوجه ابنته أمينة ، فجمدت عينه عن البكاء وتوقف ثغره عن البسمة ، وعجب لتصاريف القدر التى تخرج الحى من الميت .

الموت عجلان الى والدى
والوضع مستعص على زوجتى
والقلب ما بينهما حائر
من بلدة أسرى الى بلدة

(١) كان يحلو له أن يطلق هذا اللقب على زوجه لوداعتها ورقتها .

حتى بدا الصبح فولى أبى
وأقبلت بعد العناء ابنتى (١)

وانقطعت بعد ذلك صلة الشاعر بحى الحنفى، فقد نقل واندته الى بيته بحلوان لتعيش معه . ومرت الايام مسرعة ، وغسل الشاعر أحزانه ، وأسدلت ستور من النسيان بينه وبين جراحات الماضى ، وبدا له ان حياته قد عادت سيرتها ، وأن الايام التى ازعجته قد كفت يدها عنه .

وكان البارودى قد عاد من منفاه ، وجاور شوقى فى سكناه بحلوان ، « فاذا الجار كريم والشاعر عظيم (٢) » ولكن عودته لم تشر ضجة أدبية ، فقد احتل شاعر الامير زعامة الشعر ، ومن الحق انه كان قد تأثر به ونسج على منواله أول عهده بالشعر ولكنه اليوم يختط طريقا جديدة ، فالبارودى فارس فى حياته وفى شعره ، جهير الصوت جزل الكلمات ، أما هو فرقة طبعه ، غلبت على نتاجه ، حتى استحالت قصائده أنغاما ، تصلح للغناء فى أفراح مصر وفى أحزانها . والبارودى يمثل فترة الاحياء للتراث والرجعة الى زمان الفحول بما فيه من نقاء وقوة ، اما هو فقد تجاوز هذه المرحلة ، أو بمعنى آخر هو التطور الطبيعى للبيئة والزمان . ان شخصية مصر لم تكن قد اكتملت ونضجت أيام البارودى ، وانما كانت كل الاحداث ارهاصا . وهل كان البارودى يستطيع أن يقول فى ابنته «سميرة» الا ما قال؟ أما هو فابنته « أمينة » تمثل الجيل الجديد ، والشخصية الجديدة النامية ، ومن أجل ذلك كان شعره فيها مصبوغا بهذه الصبغة ، مصورا لآمال الكبار فى الناشئة الجديدة ، عندما تكبر ، وتبنى مصر بسواعدها القوية ، ان الجيل الصاعد لا يعرف العبرات ولا اليأس،

(١) الشوقيات القديمة ص ٢٠٠

(٢) الشوقيات المجهولة ص ١١٨ .

وانما يعرف المدافعة والمزاحمة وأخذ العيش بقوة ونيل الدنيا غلابا .
 انه يحب أبناءه ، عليا ، وأمينة ، وحسينا ، وإذا كان على هو ولي
 عهده كما يحلو له دائما أن يسميه ، فان حسينا لا يطيق فراقه ،
 ولكن أمينة وحدها هي التي استأثرت بأكثر شعره في الاسرة لانها
 تمثل الحنان ، تمثل أمومة مصر .

ولي طفلة جازت السنتين
 كبعض الملائك أو أظهر
 بعينين في مثل لون السماء
 وسنين يا حبذا الجوهر
 فقلت لها أيهذا الملاك
 تحب السلام ولا أنكر
 ولكن قبلك خاب المسيح
 وباء بمنشورة القيصر
 ومن يعدم الظفر بين الذئاب
 فان الذئاب به تظفر
 فخذ هاك « بندقة » نارها
 سلام عليك اذا تسعر
 ففيها الحياة لمن حازها
 وفيها السعادة والمفخر (١) .

كم طابت له الإقامة في هذه الأشهر الأخيرة التي جاور فيها
 البارودي ، وشهد بعض ندواته التي كان يحضرها الأدباء ، ولكنه

(١) الشوقيات القديمة ص ٤ .

مضطر للانتقال الى داره الجديدة بالمطرية ، ليكون على مقربة من عمله بقصر القبة . « ان كرمه ابن هانىء » هى بيت الاحلام بناها على نسق قصر المنتزه ، فحديقته مليئة بالحيوانات الاليفة وغير الاليفة ، الغزلان والسلاحف والقردة والطواويس والبيغاوات ومئات العصافير الملونة ، والتمساح الذى أتى به من السودان بنى له حوضا خاصا وسط الحديقة .

ألم يشاهد كل هذا من قبل فى قصر الخديو ، ويحلم باليوم الذى يكون له فيه مثله ؟ وغرف الصالون الخضراء والحمراء والبيضاء ، واحدة على طراز عربى وأخرى طراز لويس الخامس عشر والثالثة طراز لويس السادس عشر واللوحات التى تزينها ، أغلبها لوحات نادرة ، اشتراها من المزادات التى أغرم بها فى الايام الاخيرة . ولكن غرفة المكتبة هى التى نالت أكبر اهتمامه ، حتى تتسع لانف مجلد عربى وخمسمائة مجلد فرنسى وتركى . فهو يقرأ فى كل اتجاه «وخير جليس فى الزمان كتاب» ، يقرأ فى الطب والفقه والعلوم والجغرافيا والتاريخ والادب ، بل كل كتاب يقع فى يده أو يقرأ عنه فى الدوريات ولكن أحب الكتب الى نفسه ما زالت هى كتب الادب والتاريخ وعلى الاخص الاغانى والامالى والدواوين وابن الاثير والجبرتى .

ان هذا البيت الضخم يحتاج بطبيعة الحال الى خدم كثيرين والى من تديره ولكنه ينبغى أن يعاملهم معاملة الانسان للانسان ، معاملة السيد للسيد ، حتى لا يشعروا بمرارة الحاجة أو ذل الخدمة، ثم يمنحهم الوقت الذى يستمتعون فيه بحياتهم بعيدا عن العمل ، ويمنحهم المال ليستمتعوا بوقتهم كما ينبغى .

وأبغض شىء لديه أن يضطر لاجراج واحد منهم حين يستحيل اصلاح ما أعوج من أمره . وهو لم يعتد فرض شخصيته عن طريق

الاورام يلقيها بصوت خشن وقد رسم على وجهه قناعا من التجهم ،
وانما اعتاد دائما أن يكون سمحا وأن يرعى الجميع ، وألا يجرح
واحدا منهم سواء أكان خادمه أم ولده الا اذا كان الامر يمس الدين
من قريب أو بعيد ، فهو حريص على أن تكون للدين قدسيته . فقد
عنف حسينا مره على مزحة مزحها وقد مست الدين ، عنفه رغم صغر
سنه ، ورغم حنانه وحبه الشديد له . وقد دفعه هذا الحنان الشديد
الى تدليل أبنائه وممازحتهم في كل حين فعلى « لولو » وحسين
« سيسي » ، حتى بعد أن كبروا وبنوا يملون تقبيلهم من والدهم .
وهو يردد دائما : اثنان لاغنى لي هما ، «حسين ومبسم سيجارتى» .
وهذا الحنان نفسه هو الذي به يفكر في البيت المجاور لكرمنه ،
يشترية ويزيل الجدار بينهما لتقييم فيه ابنته أمينة يوم تتزوج .
ولكن هذا التعلق الشديد بأبنائه كثيرا ما دفعه الى مزلق ، ألم
يحاول أن يستبقى ولده «حسين» ليستمتع بمداعبته ، فيعطل ذهابه
الى المدرسة ؟ ولولا حزم المربية التركية واصرارها لجنى المر بعد
حين . ألم يسمح لولده على بالتدخين في حضرته حتى استنكر
الناس خروجه على التقاليد ؟ انه يعيش الحياة طولا وعرضا فليدع
الآخرين يعيشون ، فهو لا ينسى أيام كان يضطر أحيانا الى رهن
ساعته في سبيل كأس من الشراب . لقد استطاع أن يبدل حياته ،
واذا كان فنه قد دفع الجميع الى تقديره ورفعته ، فقد دفع الثمن من
أعصابه وصحته حتى وصل الى ما وصل اليه ، واعتاد حياة فيها شيء
من الرتابة ولكن فيها كثيرا من الخصوبة . فهو لا يستيقظ مبكرا
أبدا منذ أيام التلمذة ، وانما بعد العاشرة بقليل ، حيث يستقبله
خادم يغسل وجهه ورأسه وذراعيه وقدميه بالماء الفاتر ثم
«بالكولونيا» ، حتى اذا ما تناول طعام افطاره وغالبا ما يتكون من
القهوة والبيض ، ساعده الخادم في تناول ملابسه ، ثم يأخذ عربته
في طريقه الى القصر . ما أعجب حياة القصر ، وما أكثر الدسائس

التي تحاك لهذا أو لذاك ، ان آخر الضحايا هو السيد محمد توفيق البكرى الذى أصيب بالجنون . وهكذا تاريخ القصور من قديم وهو تاريخ بشار وأبى نواس والمنتبى وغيرهم ، ولكنه استطاع أن يحتفظ وسط هذه التيارات بالحياد التام ، خاصة بعد أن اضطرب تفكير عباس وراح يتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يفر من الانجليز الى تركيا ، وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتميا منه بالانجليز ، وهو كاره لكليهما فى الحالىن ، لا تطمئن نفسه الى هذا ولا الى ذاك . وبينما يشجع أعضاء تركيا الفتاة الفارين الى مصر ، اذا به ينقلب الى محاربتهم وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه التماسا للحد من نفوذ كرومر ، اذا به يتنكر للشعب ويزج بالاحرار فى السجون حين يرى اقبال جورست عليه ، مهما يكن من دخيلة أمره فقد انتهى الى اليأس والانحلال (١) .

هذه هى حياة القصور ، ويا لها من حياة داخل هذا القفص الذهبى ، ولكنه استطاع أن يتسلل منه ، فلا يحس ضيق القضبان وألم القيد . على انه ينسى كل هذا اذا ما عاد الى بيته ، فهو يخلع رداء السياسة ليلبس رداء الفن . فكم شهدت الكرمة من احتفالات وامسيات بهيجة ، خاصة أيام شم النسيم حين يجتمع الادباء والشعراء ، وعلى رأسهم حافظ ابراهيم و خليل مطران ينشدان وسط طرب الحاضرین . واذا ما تصادف وجود أديب كبير من أدباء الغرب أو الشرق دعى الى الكرمة ، مثلما دعى «هول كين» الكاتب الانجليزى عام ١٩٠٨ ، وأنشدت قصيدته هو هذه المرة :

أيها الكاتب المصور صور
مصر بالمنظر الانيق الخليق

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ص ١٧٠/١٧١ .

ان مصرا رواية الدهر فاقراً عبرة الدهر فى الكتاب العتيق

وهو يحب الافتتان فى كل شىء ، فى كل لمسة من لمسات البيت ، وفى كل طبق من أطباق الطعام . فكم دعا صديقه الطبيب النمساوى لاجادته طبقاً فرنسياً وهو «حساء السمك» ، وكم أرهق صديقه الزعيم التونسى السيد الثعالبى بتكليفه صنع أطباق من الطعام التونسى . ولكنه غير أكول ، وحتى الاطباق التى يهواها ، قد يعزف عنها بقية عمره ان رأى من يأكل منها بطريقة تثير اشمئزازه .

ولكن أحب الاوقات الى نفسه ، هى ما بعد الغداء حين يفرغ للقراءة ، انها تبعده عن كل صراع الاصرار الفكر . أما وقته فى المساء فموزع ما بين زيارته لشقيقته أو زيارته لاصدقائه من أصحاب الصحف ، ثم العودة الى «جروبى أو صولت» وهو فى أكثر تنقلاته يحاول أن يختلط بالناس فيركب الترام ويستمتع الى أحاديث العامة ، ويفهم ما يصدر عنهم . حتى اذا ما جاوز الليل منتصفه ، آن له أن يعود الى بيته ، فيتخفف من ملابسه ، ثم يلبس جلباباً من الصوف الرقيق ، ويبقى بغرفته يسجل ما نظمه طول يومه ، أو يكمل قصيدة بدأها ، فاذا أتم ذلك ، استغرق فى القراءة الى منتصف الرابعة ، وحده فى هدأة الليل . حتى اذا أذن الديك الصدوح ، ترك القلم والكتاب ، وأسلم جفنيه للنعاس .

حيرة

كانت حركة الاحياء آخذة في المسير ، وأخذ الشعراء ينسجون على نمط فحول الشعر العربي ، ولكن الشعر بقى بحاجة الى خطوة أخرى ، بل خطوات . ومنذ أواخر القرن الماضي بدأت الدعوة الى تمثل الشعر العربي تتخذ طريقها . ونشر المقتطف عام ١٨٩٢ توجيئه يقوم على هذا التمثل ، حين كان المثقفون يقرأون الشعر الغربي ، فيجدون فيه انطلاقا من كثير من القيود ، ويجدون فيه تعبيرا عن تجربة ويجدون فيه اتجاهات أرحب ، ثم يقرأون الشعر العربي فيرون الشاعر مازال يبكي الاطلال ، ومازال يرتدى أثوابا بعضها صالح للبقاء وبعضها قد ابلته الأيام . قال المقتطف : « أما المحدثون فقد اتبع أكثرهم خطة واحدة في الغزل والمدح والثناء ، فيبتدئ الشاعر بوصف عادة ، فيشبه شعرها بالليل وجبينها بالصبح وحاجبها بالسيف وعينها بالنرجس ووجنتها بالورد وثرها باللؤلؤ ، وريقها بالعسل وقوامها بالبان ، وينتقل الى المدوح فيدعى أنه أهدى في الشجاعة وحاتم في الكرم وبحر في الجود ، وانه جمع علوم الورى في صدره ، ثم يدعو له بطول البقاء . هذا وقد استشارنا بعض النابغين من شعراء عصرنا في طريقة لفك الشعر العربي من ربة القيود التي يتقيد بها ، فأشرنا عليهم بترجمة أشعار هوميروس وملتون وغيرهما من فحول الشعراء فعملوا بمشورتنا ، فاذا أتيح لهم أن ينظموا هذه الاشعار ولا يضيعوا شيئا من بلاغتها ، رأى فيها أدباؤنا ما يغير رأيهم في

الشعر والشعراء ، فيفادرون الطريقة التي اتبعوها حتى الآن» (١) .

هذه الدعوة كانت بمثابة البذرة ، أقيت في التربة المصرية الخصبة ، فلم تمض سنوات حتى ترجم سليمان البستاني الياذة هوميروس عام ١٩٠٤ ، وتناول في مقدمته التي تقع في مائتي صفحة الترجمة الشعرية وعلاقة الاوزان والقواني بالمعاني . ولم تكد تظهر الياذة ، حتى شغلت الجرائد والمجلات وقال الهلال : « ان الياذة العربية بما فيها من الأبحاث الشعرية المبتكرة

جديرة أن تكون بدء نهضة جديدة في الشعر العربي ، فنتجه عناية شعرائنا الى نظم الشعر القصصى أو الوصفى بعد أن تبين من نظم الياذة ان اللغة العربية متسعة لذلك والنهضة العمومية تستلزم هذا الاصلاح ، وان تصرف القرائح في الشعر الموسيقى عن الأساليب القديمة كالاستهلال بالتشبيب أو ذكر الحمر أو الزهر والتخلص الى المدح أو غيره فيسير الناس على ما يقتضيه نور العلم في تحدى العقول والاقتراب من الحقيقة بقدر الامكان » (٢) .

وتستمر الدعوة الى التجديد ، فيدعو النقاد الى التجديد في المحتوى ، بعد أن أصبح شعرنا مكررا ، فليس الشعر غزلا وورثاء ومدحا وحسب . حتى لو جمعنا ما قاله الشعراء في هذه الموضوعات التي احترقت لم نر أدنى فرق بين الواحد منهم والآخر ولأمكننا - كما قال النقاد - ان نختصر تلك المجلدات الضخمة الى صفحات « فالشعر عندنا عود ليس فيه الا وتر واحد يضرب عليه الكل فيختلف الصوت تبعا لقوة الضربة وحركة

(١) المتطف ص ١٥٠ (١٨٩٢) .

(٢) الهلال يوليو ١٩٠٤ ص ٥٧٥ .

الأنامل ، والغريب ان أكثر شعرائنا وكتابنا لا يريدون تغيير القديم، بل ولا يقبلون الجديد ، فان سمع الواحد منهم بيتا جديدا أو معنى جديدا ، قال هذه تصورات افرنجية ، كأن الفكر العربى قاصر على الاختراع وليست له قدرة الابداع (١) . «

ما زلنا فى العام الأول من القرن العشرين والدعوة الى التجديد تأخذ طريقها ، فيطالب النقاد بالصدق الفنى ، صدق الاحساس ، فلا حاجة بالشاعر الى أن يصف أماكن لم يرها ، ولكنه محتاج الى أن يعبر عما تجيش به نفسه حقيقة . ولا معنى لحداء الابل وهبوب ريح الحجاز وذكر الرقمتين ، ولا معنى لأن تبدو له المركبات الحديثة فى صورة هودج البدو ويرى فى الأهرام أطلالا ، كأنما وضعنا للشعر قلبا من الحديد ضمناه قرائحنا كما يفعل أهل الصين بأقدام بناتهم ، فلا القلب يتسع ولا الرجل تنمو . « فاتهم أن الشعر يتغير بتغير البلدان واختلاف طبائع الأمم ، ويرافقها فى أحوالها المتباينة ، فهو طورا فى مقام واصف ابهة الملك وعزّة البلاد ، وتارة فى مقام المفاخر بما خلفه الاباء والأجداد ، وآونة يمثل عظمة الطبيعة وجمالها ، وحينما يعكس فى عين المرء أو الشعب صوره أخلاقه وآرائه » . (٢)

ثم انتقل الأمر الى زاوية أخرى شديدة الأهمية عظيمة الخطر ، وهى الصنعة والترصيع والاكثرار من التشبيهات والاستعارات والكنيات ، حتى تصبح القصيدة كالثوب البرقش ، تختفى خلف زخارفه قيمته ، وتشتت فى نقشها الأحاسيس وكأنما يستعذب أدباء العرب هذا الكلام المرصع مثلما يستحسنون النقش

(١) المقتطف ١٩٠٠ ص ٢٩٣ (بلاغة العرب والافرنج للدكتور نقولا فياض).

(٢) المصدر السابق .

على اليد والصبغ الأحمر على البنيان والاثمة على الشفاه .
والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية وبين اليد المنقوش عليها ذلك
النقش الوحشى والأنامل المخضبة بالحناء ، واضح لأصحاب
الاذواق السليمة . وفى ذلك قال روحى الخالدى : « ففكتور
هو جو وأهل طريقه لا يرون شيئاً من الحسن فى هذه التشابيه
والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعانى التى
ليست بطبيعية ، بل يجدونها من المعانى السخيفة خرج بها أصحابها
عن الذوق ... ثم جاءوا يقولون : نالت على يدها ما لم تنله
يدى » . (١)

انه عصر الاحتكاك بين الحضارتين ، والدعوات الى التجديد
تظهر على أشدها دائماً فى مثل تلك الأوقات ، هكذا أدرك شوقى ،
وكان له موقف . فيهاجم الاستغراق فى القديم كما يهاجم
الاستغراق فى الجديد . يهاجم شعراء الصناعة ، ويهاجم الشعراء
الذين اتخذوا المديح حرفة وقصروا الشعر على هذا الميدان وحده ،
ويهاجم كذلك الشعراء الذين يعيشون فى غير زمانهم ، وأولئك
الذين ابتعدوا بالشعر عن وادى الحقيقة ، ولكنه بعد ذلك
لا يستغرق فى الاتجاهات الغربية ، فالعداء للشعر العربى سببه
الجهل به ، لأن به روائع ومعجزات أمثال المتنبى ، وانما السبيل
أمام هذين التيارين هو أن نأخذ من صالح الموروث وصالح العصرى
ونمخضهما معا ليخرج مركب أساسه الماضى وبنائوه الحاضر .

تلك هى الأسس التى كانت أمامه وهو يكتب مقدمة
الديوان وهو يعلم أن القراء سوف يهاجمونه لأنه اتجه الى المديح
كما اتجه الشعراء العرب بينما هو لا يجله ، ومن أجل ذلك يدافع
عن نفسه ، لأنه قال الشعر ولم يكن أمامه الا النماذج الموروثة

يحتديها ، ثم طلب العلم في أوروبا ، وهناك اصطدم بالاتجاهات الغربية فحاول التجديد وبعث بقصيدته « خدعوها بقولهم حسناء » فكانت النتيجة أنها لم تنشر لأن الأذواق لم تتطور بعد ، ولم تتقبل هذا الجديد ، أو بمعنى آخر لم تتقبل الجديد طفرة ، وها هو ذا « مطران » صديقه يحاول بعض الاتجاهات الرومانسية فيما ينشر من قصائد فلا يكاد يحفل الناس بمحاولاته ، بل لعلهم أدنى إلى الارتياح منهم إلى التقبل . ولكنه سوف يحاول التجديد في توده لا تؤذي الأذواق ، وسوف يبدأ بتوسيع دائرة إنتاجه ، ولكن أمامه قاعدة ينبغي ألا ينطلق إلا منها ، وهي التراث العربي ، كلما كان أمر الجديد يتعلق بالشعر . أما النثر فتلك قضية أخرى ، لأنه من العسير أن نرى في الأدب العربي قصصا بالمعنى الغربي فليحاول إذن أن ينفذ إلى هذا المجال الجديد عله أن يوفق .

ان هواه وغرامه بالتاريخ المصري القديم ، يدفعه إلى التقاط هيكل قصصه من ذلك التاريخ ، وليس هذا الغرام وليد أعجاب وحسب ، ولكنه وليد أحساس أصيل بالشخصية المصرية ، مصر للمصريين ، أنها دعوة جديرة بطول الالتفات من جانب الكتاب والشعراء والمؤرخين والباحثين .

وهكذا استغرقته الأعوام وهو يقرأ التاريخ الفرعوني ، ويكتب قصصه « عذراء الهند » التي استمد حوادثها من أيام رمسيس الثاني ثم دل وتيمان أو آخر الفراعنة « ولا دياس » . لقد احتفل بهذه القصة الأخيرة أكثر مما احتفل بغيرها فاختار المغامرة البطولية بما فيها من عناصر التشويق ، ركيذة للقصة تلتف حولها الأحداث الفرعية كلها ، انها قصة « أممس » المصري « ولا دياس » الأميرة اليونانية بنت الملك بوليقرات صاحب « ساموس » إحدى ممالك اليونان . واطار القصة تاريخي ولكن

أحداث الحب فيها روائية أشبه بقصص ألف ليلة وليلة . لم يكن للاميرة كفاء من أبناء جنسها للزواج بها ، حتى ابن عمها الامير « بيروس » الذى شغفته حبا ، فاستحال غرامه الى سخط ورغبة فى الانتقام . واشترط أبوها أن يكون صهره ملكا مثله ، سواء نال الملك بكده أم توارثه عن أجداده . فتوافد الأمراء من مصر وفارس والهند لخطبة الأميرة التى سترث عرش ساموس ولو اقتصرت القصة على هذا الحد ما نجحت ، ولكن الأحداث التى جرت بعد ذلك هى التى نمت رسم الشخصيات وتطور العقدة . فقد أسرتها عصابة بايعاز من ابن عمها « بيروس » وهنا يظهر أحمس بطلا فى البحر كما كان فى مصر بطلا فى البر ، وهو فتى له همم لا منتهى لكبارها ، تعينها حظوظ مقبلة . فينقذ الأميرة من أسرها ، بعد أهوال جنسام . ثم تقع مرة أخرى فى يد « بهرام » الفارسى الذى كان أحد خطابها ، فيوهمها أنه منقذها ، وبينه وبين أحمس شبه وملامح ، فلا تصدق عينها ولا يطمئن قلبها .

ويصر الأمير الفارسى أمام أبيها الملك وأمام بطانته أنه منقذها ومخلصها من الأسر ، وأنها أصبحت له زوجا بحق الشرط الذى اشترطه أبوها ، فتأبى الأميرة ، ولا تزال الحوادث تتوالى حتى يظهر « أحمس » من جديد ، فيكشف عن خدعة الامير الفارسى ويثبت للملك أنه هو الذى أنقذها ، وأنه احق الناس بها . ويعود « احمس » الى وطنه بعد أن سبقته اليها أنباء شجاعته الخارقة وبطولته النادرة ، ويعد العدة لانتزاع الملك من الملك « ابرياس » الذى كان « ساقط الشأن فى الداخل ، ميت الذكر فى الخارج » . وانتصر عليه بالحيلة ، ثم بعث فى طلب الأميرة اليونانية لتكون ملكة فى عرشه الجديد .

ومن الطبيعى أن تكون الرواية نثرية ، ولكنه لم يستطع أن

يتغلب على روح الشعر فيه ، فظهرت أبيات هنا وهناك ، حين يتأزم موقف ، أو يحتاج الى الخيال كالمواقف العاطفية ، ولم يستطع ، بل لم يحاول أن يتخلص من روح العصر في الكتابة ، فالسجع هو أسلوب الرواية من أولها الى آخرها ، فاذا كان بعض الكتاب المعاصرين يرون « السجع للمؤلف كالرجل من الخشب للماشي ، فينبغي لي ألا أتوكأ عليه مثلا تضيق بي مذاهبه » فان مذاهبه لم تضق ، واذا جاز هذا القول في المقالات الصحفية التي تتبع الحاجات اليومية أو في المقالات العلمية ، فهل يجوز في المجالات الأدبية ؟ موضع نظر (١) .

وهو لا يستطيع ان يخلص من حياته في مثل هذا المجال ، فهو أدري بحياة القصور ودسائس الاتباع ، ومن أجل ذلك صورها بجدها ولهوها فيما كتب من قصص . وأظهر في نفس الوقت النزعات الوطنية مرددا في ذلك اصداء الحركة الوطنية في مصر ، وهذا هو الرباط بين الماضي والحاضر في قصصه . ان ثقافته المسرحية التي استفادها من المسرح الفرنسي وغيرها ، شجعتة على ادخال الشخصيات الثانوية المرححة حتى في المآسي ، لان الحياة لا يمكن أن تكون مأساة على طول الخط ، ثم ايضاح ملامحها والقاء الضوء عليها والاهتمام بها ، لأن صراع الأبطال دائما وراء هذه

(١) كتب شوقي غير هذا قصة « ورقة الآس » وتدور حوادثها حول «النضيرة بنت الضيزن ملك الحضرمينما دخلت تلك البقعة في ملك سابور الفارسي . ثم كتب بعد ذلك شيطان بنتاءور وهي محادثات ومحاورات بين الشاعر المصري القديم بنتاءور والشاعر المصري الحديث أحمد شوقي ، وتقارن بين حال مصر أيام مجد الفراعنة وحالها زمن الاحتلال ، وبها نظرات اجتماعية صائبة ، ومن أجل ذلك كانت هذه المحاولة تمهيدا لظهور حديث عيسى بن هشام للمويلحي التي ظهرت بعدها بست سنوات .

الشخصيات التي تقوم بدورها في التنافس. ، وعلى قدر جهده
حاول تطوير هذا الصراع الى العقدة فالحل .

والتقى بصديقه شكيب ارسلان على غير موعد ففاجأه
بقوله :

– لقد قرأت قصتك يا شوقي عن عذراء الهند ، وهى قصة
جيدة .

– ولكن ترى كيف يستقبل النقاد هذه المحاولات
الجديدة ؟ أن أغلبيتهم من اللغويين الذين يقدسون القديم ،
ويهاجمون كل جديد لأنه في نظرهم خارج على المؤلف . وهل
نسيت كيف استقبل المويلحى الطبقة الأولى من الشوقيات فى
صحيفة « مصباح الشرق » ؟ ان المقدمة نفسها كانت فى نظره
بدعة .

– بل أذكر ، وعلك تذكر أنى لم أستطع صبورا ، فرددت
عليه بمقالتي فى جريدة المؤيد متعجبا من مكابرتة ، لأن كثيرين
من فحول المؤلفين قد ترجموا أنفسهم مثل لسان الدين بن الخطيب
فى الاحاطة والسيوطى فى حسن المحاضرة .

– نعم ، فقد قطعت حجته ، وبعد أن كانوا يرمونه بالحسد
والتحامل ، جعلوا يرمونه بالجهل والتناول ، فسبحان من جعلك
جلاد لأعدائي .

– وقد تشسفت فىه انت بعد ذلك حين صفعه « محمد
نشأت » ، ووالله ما ذكرت مقطوعاتك الساخرة فىه الا انفجرت
ضاحكا ، دون أن يدرك من معى لذلك سببا ، انى أحفظها جميعا ،
ولكن أشدها استثارة قولك :

ورثت الحلم عن فحل كريم
ففيك الحلم عند الصفع عادة
وشأنك بيننا في أرض مصر
كشأن أبيك في دار السعادة

لقد نقل الراون عنى حكاية
وقالوا كلاما ما أشد وأشأما

ايصفع مثلى ناشيء ويراعنى
أسالت دموع القوم في مصر عندما

ألا اعتذروا لى عنده فانا الذى
صفت بصدغى كفه فتألم

- يا أخى كأنما النقاد قد شغلوا بى ، فلم أكد أفرغ من
المويلحى حتى ظهر « داود عمون » .
- أذكر أنه ضايقك بنقده حين نشرت قصيدتك « بات المعنى
والدجى يتبلى » (١) ، فقد توقف عند جزئيات ، فأخذ عليك قوالك
« اللابس التاجين فى المحفل » ولم يستطع الا أن يقول انه لا معنى
للبيت فى الحقيقة - ولا فى المجاز ولكنها القافية قضت فأطاع .
ووقف عند شطر البيت « ما أنت يا أسود الاخلى » فاتهمه
بالركاكة ولم يوضح ولم يأت بالدليل ، ثم عند شطر آخر تقول
فيه :

« والكأس لا تغنى ولا تمتلى » فلم يفهم مغزاها وعلق
قائلا : ما ضره لو امتلأت الكأس التى يسقى بها والجوى مديرها،
ولما لم يجد شيئا مقنعا فيما قال وقف عند ملاحظة نحويه غير

(١) المقطع ١٨٩٦/١١/٧

مقنعة هي الأخرى فقال ان عطف « الفضل » على « عدله » من
محال الضعيف ولكنه موجود .

غير أنك ياشوقى لم تسكت فقد هاجمته في احدى قصائدك،
وما زلت أحفظ أبياتك :

ويمنعنى من حاسدى ابن محمد
خلاف وشعب بيننا الدهر منسد

فلا حكمتى دعوى ولا منطقي هوى
ولا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد

قواف لرب الشعر لا النظم طائل
إذا هي سارت في البلاد ولا النقد

وسكت شكيب فسكت شوقى ولكن كلا منهما كان يعلم
ما يجول بذهن الآخر ، فقد رد « داود عمون » بأبيات عنوانها
« داء ودواء » جاء فيها (٢) عدم ردى

اجب قلمى داعى الخصام فلا بد
فقد بدت البغضاء وانكشف الحقد

واشرع قوم للبناء وشيخهم
سراعا الى الصوراء تعدو بهم جرد

على غير ذنب غير أنى مدحتهم
بنقدى والاجعلان يؤلمها الرد

انابفة العصرين لا العصر وحده
أمن ذاك هاج الضغن وارتحل الرشد

(٢) الشوقيات المجهولة ص ٨٥

أكل الذى خطت يمينك مثزل
وكل الذى يلقبه فوك لنا الشهد

جموع لأشنتات العلوم مفوه
(فلا مبدئى لؤم ولا قلمى وغند)

على أنه لو كان خصمى منصفى
لكان جزائى عنده الشكر والحمد

فانى قد داويته من غروره
ولولاي كان الداء ينمو ويشند

وقطع شكيب هذا الصمت الذى دام لحظات ، وهو يطمئن شوقى أنه سوف يرد ان وجد شيئاً من التحامل فى نقد ناقد . ولم تكذ تمضى أيام ، حتى نشر إبراهيم اليازجى نقدا لرواية « عذراء الهند » فى مجلة « البيان » يقول فيه : « والذى تبين لنا بعد تصفح جانب منها ان مؤلفها لم يقصد من صنعها الا تمثيل ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخرافات والترهات ، ولذلك أكثر فيها من ذكر الجن والعمقاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرقى والطلاسم . . . لم نجد شيئاً مما يتوخاه واضعو الروايات فى هذه الأيام من المغازى الحكيمة أو الأغراض الأبية أو الحقائق التاريخية ، ولذا فاننا نتخطى موضوع الرواية الى ما ألبسته من العبارة العربية . . » (٢)

وألقى بالجريدة الى جانبه ، وقد استبد به الضيق الشديد . ويل للكتاب من النقاد ، يفنى الكتاب أيامهم ولياليهم فى القراءة والبحث وعناء التأليف شهورا طويلة أو سنين ثم يأتى ناقد يقرأ

(١) الشوقيات المجهولة ص ٨٥ .

(٢) «البيان» عدد ١٦/١٢/١٨٩٧ .

العمل الفنى فى ساعات وهو مسترخ ، ويخط انطباعاته بعد ذلك ، ولا بد ان يجسم عيوباً حتى يكون ناقداً . اهذاً هو النقد الأدبى فى عرفهم ؟

لماذا لا يعنى الناقد نفسه بالبحث والتقصى وراء المؤلف لىتبيين تزييف التاريخ أو حسن الإدراك والفهم الصائب ؟ لماذا لا يقدر جهد الأديب الى جانب اظهاره لبراعته فى اقتناص الأخطاء اللغوية . لقد هدأت الرغبة فى التجديد وانطفأت الحماسة . سوف يقولون ان حياته فى القصر لوته عن رسالته ، ولكن الأديب لا يعينه فى الواقع قديم ولا جديد فهو ابن الماضى والحاضر والمستقبل ، وليس اختلاف الشعراء فى الواقع الا صورة لاختلاف نفوسهم فى الحس والاهواء والنزعات ، ان الأدب المصرى والبغدادى والأندلسى ليست الا صفات لزمان الشاعر العربى وبيئته .

تسعة يام مضت ، ثم وجد شكيبا يرد على اليازجى مفندا مزاعمه ، ناشرا تعليقه فى كبرى الصحف « الاهرام » . (١) واحس بالراحة وهو يقرأ التعليق : « وأما اعتراض البيان على (أحب أخوته الكثيرين الى الأمم) بأنه من التراكيب التى منعها أهل العربية حسبما نص على ذلك الحريرى فى درة الفواص وأن رد الخفاجى عليه لا يسلم من الرد ، فأقول فيه : ان الرد على الخفاجى لا يسلم من الرد أيضا . كقولهم : ان أفعال التفضيل قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو يوسف أحسن أخوته . وناهيك ان نحويا كابن خالويه أجاز هذه العبارة . وأخذ البيان عليه قوله : (وامتنهم اعلاقا فى القلوب) وذلك بأن الاعلاق جمع علق بالكسر وهو الشئ النفيس وان حقها ان تكون علائق . وقد

(١) الاهرام ٢٥/١٢/١٨٩٧ .

استغربنا وأيم الله صدور ذلك عن لغوى ثقة مثل الشيخ . والاعلاق تأتي جمعا لغير العلق «الكسر فتأتى جمعا للعلق بالتحريك وهي بمعنى الحبل المعلق بالبكرة . . . وأظن أن في ذلك من معنى العلاقة والتعليق ما يسوغ لشوقي أن يقرنها بالمتانه في معنى ارتباط القلوب . وأما كون « الرأي العام » من المواضعات الافرنجية ، درجت عليها الجرائد في هذه الأيام وليس كل ما تأتي به يجوز اتباعه ، ومعناها (اهواء النفوس) ، فانها لا تؤدي حقيقة المقصود من قولهم (الرأي العام) . ومن العجب ان يعترض على مثلها البيان وهو الذي يكتب في « اللغة والعصر » . تصل الى قول شوقي في التاريخ المصرى (ان الحقيقة معه لا يستقر بها خبر ، فهي عين تارة وأثر تموت بحجر وتحى بحجر) ومعناها ظاهر اذ لا يخفى أن التاريخ المصرى القديم مبني على الآثار الحجرية ، ولا أرى هذه الجملة في شيء من الطلاسم والرقى كما قال البيان » .

وذهب الأثر السيء الذى خلفه نقد « البيان » في نفسه ، ولكنه فتح عينه معا على أمر مهم ، فالنهضة الأدبية التى يبغىها جزء من كل ، هي جزء من النهضة الوطنية ضد الاستعمار ، ولذا ينبغى ان تستوحى النهضة الأدبية التراث العربى وتتخذ منه قاعدة انطلاق في تطور أشد اتزاناً ، وليس من الممكن أن يتخطى هذا الدور في النهضات والا اقتلعنا جذورنا بأيدينا . وادراك هذه المسئولية شيء خطير ، وعلى أكتافه سوف ترسخ قاعدة الانطلاق . ان جمهوره الكبير سيهتم بكل شاعر يعارضه ويعود الى قراءته ، ومن هنا ينبغى ان ينطلق فيعارض الفحول أبا تمام والمتبنى

والبحتري والمعري والحصري والبوصيري وغيرهم . ولكن المهم
ألا تفنى شخصيته في هذه المعارضات ، وإنما ينبغي أن يحاول
الوصول الى ذلك المستوى الرفيع مقابلا الصورة الموروثة بصورة
عصرية والمعنى المكرر بمعنى مبتدع والصياغة الجيدة بصياغة
لا تقل جودة . وعندها قد لا يستطيع ناقد ان ينفذ بسهامه وهو
في نفس الوقت لن يتخلى عن السير في موكب التطور فتلك طبيعة
العصر لا خلاص له ولا لغيره منها ، وفرق بين التطور الذي
تمليه الحياة وبين التطور عن قسر ، أما الحيرة بين القديم تارة
والجديد تارة أخرى فلن تضىء له الطريق ، ولن تزيده الا احساسا
بالقلق وبالتردد ، فوداعا للحيرة اذن ، ووداعا للتردد .



مركز تحقيقات كميوتور علوم رسلاي

مع الكروان

دخل الحفل ، فتهامس الحاضرون وقد عرفوه : حافظ ابراهيم !! طويل ضخم ، عظيم الأنف ، خفيف الشارب ، كأنه خيط ملتصق بشفته العليا ، فهو بشارب الصينيين ألصق .
يمشى كأنه مقيد في انحناءة يسيرة ، تخاله أسيرا في روما القديمة ، اثقلت رجليه القيود وبهظه حارس بثقل من الحديد فوق كاهله .
اتسعت عليه ثيابه ، فلاح فيها كتلك الشخوص التي تنصب على الكروم أو على البيادر لإفزاز الطير ، بعيدة عن الاناقة بعد وجهه عن الوسامة ، يتوكأ على عصا من الخيزران غليظة ، انثنى رأسها انثناء واسعة ، وقد تطوقت بطوق من العاج المنقوش ، وتقدم من المنصة ثم أنشد بصوت قوى رخيم :

**طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا
واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم**

وسكت الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، أو كأنهم يستمعون الى لحن منسجم رائع ، وارتفع الصوت قليلا قليلا حتى تحول الى ايقاع شديد النبرات ، وضج الحاضرون من الانفعال ، وماجت حناجرهم ثم غضوا عيونهم الدامعة مع خفوت الصوت مرة أخرى ، وقد سلبت ألبابهم وانتزعت قلوبهم من عنف الوجيب عندما وصل الى قوله :

**انى أرى ، وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الأكبار والعظم**

ارى جلالا ارى نورا ارى ملكا
ارى محيا يحيينا ويتسسم
الله أكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم يسعد الكلم

واستمرت القصيدة متماوجة النغمات ودميت الاكف من
التصفيق وانتشت الارواح ، وارتعشت الشفاه كأنما تفيض
بحماسة الافئدة ، ثم اذكى جنة الناس فى ختام القصيدة وترك
مكانه وهو يهتف :

يا أيها النشء سيروا فى طريقته
وثابروا رضى الاعضاء أو انقموا
فكلكم « مصطفى » لو سار سيرته
وكلكم « كامل » لو جازه السأم

وخرج الجمع ، وخرج شوقى مع الخارجين وعلى وجهه
علامات الانفعال . اتراه انفعل مع القصيدة كما انفعل الناس ،
أم تراه انفعل لهذا النجاح الكبير الذى لقيته القصيدة . . انه
لا يقوى على الالقاء ولم يلق قصيدة قط فى حياته ، وها هو ذا
مناقسه يجيد الالقاء ويتفوق فيه دون منازع له ، فينتزع
الاعجاب انتزاعا مهما كان مستوى القصيدة الفنى ، ومع ذلك
فالقصيدة ثرية بالأحاسيس ، يزيد من ثرائها هذا التوزيع
الموسيقى الرائع . وحين ركب شوقى عربته وغاب عن الانظار
انفجر أمام العبد بالضحك ، فقد كان يلحظ انفعالاته وهو يسير
الى جوار المنفلوطى ، وابتدره قائلا ،

— لقد تفوق حافظ في الوطنيات على شوقي ، فشوقي لم يقل اليوم في ذكرى مصطفى كامل ، وحتى قصيدته التي قالها في العام الماضي ، حين مات مصطفى ، لم تكن أكثر من آهة حزن يطلقها صديق لوفاة صديقه ، كأنه لم يكن زعيما وطنيا ، انه القفص الذهبي ، فيعد ان اختلف الخديو مع مصطفى كامل لم يستطع شوقي أن يقول الا ما قال ، وهذا ما جعله يضيق به ويحقد عليه .

— يا أخى . . ما أطول لسانك ، ان شوقي لا يحقد على أحد ، فهو الذى سعى لدى جريدة «الأهرام» يوم عاد «حافظ» من السودان مطرودا من الجيش ، ولكن صاحب «الاهرام» هو الذى رفض تعيين «حافظ» خشيبة «كرومر» واليوم . . بعد عشر سنوات يسعى له مرة ثانية في الحصول على رتبة الباكوية .

— ان التنافس وضع بينهما في اللقب ، فشوقي كان شاعر الأمير ، فأسرع « على يوسف » وأطلق على « حافظ » شاعر النيل وشتان بينهما ، فشاعر الأمير انما ينسب الى واحد ، وشاعر النيل ينسب الى المجموع الذى يستقى من هذا النهر الخالد ومنهم الامير نفسه ، ولم يعوز شوقي السعى الى صحف أخرى ، فلقبوه أمير الشعراء ، فأصبح شاعر النيل رعية لأمير الشعراء ، ولكن المسألة ليست مسألة ألقاب ، فأنت ترى الجماهير وكيف تتعلق بوطنيات حافظ .

— أى وطنية يا أمام ؟ ان حافظا مذعور القلب في غير ذعر ، وقلما تغفل لطائر الذعر عين الا في الأحيان النادرة . وهل نسيت قصيدته في حادثة دنشواى ؟ كلها استخذاء ، « جاء جهالنا بأمر » وجهنا لنا هم المواطنون الابرياء من تهم الانجليز وتهم حافظ نفسه ، وماذا يعنى حافظ بقوله « من ضعيف ألقى اليك القيادة »؟

فهل ارتضينا أن نسلم قيادنا الى المستعمر ؟ ان حافظا علم من
أعلام الشعر الذين ينتظر منهم التوجيه السليم والقدوة الحسنة،
وهو ليس صاحب ذرية فنعتذر له بالخشية عليهم . تم تلومون
شوقى لأنه لم يعرض لهذه الحادثة الا بعد مرور سنة ، وهو في
نظري قد سلك مسلكا اكرم من مسلك حافظ ، لأنه لاذ بالصمت
حتى تحين فرصة القول . لقد كان الاخلق بحافظ ان يشجع
مواطنيه ويستحثهم على استنفاذ وطنهم من الاحتلال ، مدكرا اياهم
بمجدهم الغابر كما يصنع شوقى . شوقى يصور لنا من حياتنا
ناحية الكبرياء الجريحة ، أما حافظ فيصور ناحية الثورة الهزيمة .
وهل نسيت قصيدته في « وداع كرومر » ؟ لقد عود فيها ايديه
البيضاء بينما ندد شوقى بسياسته وشهر بأعمال انجليز .
ومهما قيل من تبرير لجرأة شوقى على كرومر ، فقد كان حافظ
يستطيع ان يصمت كما صمت شوقى في دنشواى . وحتى قصائد
المديح عند شوقى ، تمور بنغمات الوطنية المتوثبة ، حين يردد
عن ثقة أمله في استعادة الاستقلال ويذكر بالماضى المجيد . وربما
كان بؤس حافظ هو الذي صبغ شعره جميعا بالوان التشاؤم .
ولا اشك في وطنيته وحبه لبلده ، ولكنه شاعر لا نهج له ووطنياته
تقال في فورة الأمر فلا تخطيء هدفها في وقتها أما بعد ذلك
فلا (1) .

— مهما قلتم يا أصحاب شوقى ، ومهما تعصبتم له ، فان
روائع العثمانية تفوح منه قوية نفاذة ، هو شاعر الجامعة
العثمانية ، اما حافظ فهو شاعر القومية المصرية ، وكثيرا ما يردد
ان حياة الأمم كحياة الافراد تبدأ من الداخل وتقوى وتشتد
من الداخل ايضا ، فاذا توافرت فيها أسباب القوة استطاعت ان

(1) راجع حافظ ابراهيم لعبد الحميد الجندى (فصل الوطنية) .

تنهض وتحافظ على استقلالها وتدافع عن حريتها
 ذلك فهو يصب سهامه على كل مصرى مارق أكثر مما ي
 على كل مستعمر ، لأن من الطبيعي ان يكون المستعمر بر . . . بسببه .
 وحافظ لا يعترف بتفوق شوقى وقد اظهر كل عيوبه الفنية في
 كتابه « ليالى سطيح » حيث قال : « وهو فارغ للشعر غير مشغول
 بغيره ، فالعجب ألا يجيد ، واعجب منه ان يقال انه مكثار
 وقصائده في العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . . ولو منح
 دقة المبانى ما منح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد
 الذى اخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع ، ولكنه لم يغادر
 معنى من معانى العرب والفرنجة الاسلخه ومسخه فما عسى ان
 يكون فخره علينا ؟ (١) وغمزه فى بعض شعره ذاكرا أنه أشعر
 منه ، مثل قوله :

كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف
 سنامحت فيه لنظام ووزان

عابوا سسكوتى ولولاه لنا نطقوا
 ولا جرت خيلهم شوطا بميدان

اليوم أنشدتهم شعرا يعيد لهم
 عهد النواسى أو أيام حسان

من الاوانس جلاها يراع فتى
 صافى القريجة صاح غير نشوان (٢)

— يا امام أنت تعرف كما يعرف كل أديب أن حافظا حاول

(١) ليالى سطيح ص ٤٧ .

(٢) ديون حافظ ج ١ ص ٢٤

مرات أن يكون شيئاً عند الأمير أو عند الخليفة ، وقد كانت أبواب الخلفاء في العصور الماضية تتسع لكل الشعراء ، ولكنها ضاقت فلم تعد تتسع ، فحسد شوقي ، وظن انه يكيد له ، والواقع ان ثقافة شوقي الواسعة وتفرغه لفنه كما يقول حافظ ، قد وصلا به الى سمو لا يدانيه حافظ ولا غيره من شعراء العصر ، واذا حاولنا أن توازن بين قصيدتين لهما من الناحية الفنية الخالصة ، لم نجد مجالاً للموازنة . وهل نسيت ، قصيدة شوقي في « عيد الفداء » التي قالها منذ أشهر وكيف اثارت ابياته ضجة أدبية هائلة : (١)

قلبي اذكرت اليوم غير موفق
 أيام أنت مع الشباب موفق
 فخفت من ذكرى الشباب وعهده
 لهفي عليك لكل ذكرى تخفق
 كم زيت من حرق الجوى واليوم من
 أسف عليه وحسرة تتحرق

ولم يستطع حافظ أن يقول شيئاً أمام غزل شوقي ومدىحه، فاعترف له بالتفوق فيهما وراح نفسه من المنافسة في قصيدته التي قالها في نفس المناسبة ومن نفس البحر والروى ، فلم تثر في القراء الا الاشفاق .

— لا تظن انى أهون من شأن شوقي أو أبغضه ، فالواقع

(٢) حاشية الشوقيات ج ١ ص ١٩٢/١٩٣ .

انى أحبه وأحب شعره كما أحب مداعباته . فقد كنت أجلس
بالأمس مع حافظ ومر بنا شوقى ، فانفجر ضاحكا وهو يقول :
« انتم قاعدین زى الملاحه – أبيض واسود » . ومهما يكن من أمر
فهما أكبر شاعرین فى الوطن العربى ، ملا الدنيا وشغلا الناس .
وأنا أعرف مدى اعجابك بشعر شوقى ، فاعلم اذن كى تستريح
أنى اعتبرهما قريبا من قريب .



مركز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

ساقى الطلا

كان يسير متجها صوب حانة « سان جيمس » ، يده فى عروة الصدرية ، تلك عادته ، وبنيقته المنشاة يتعلق بها « بيونه » ، كبير الرأس صلت الجبين ، تظهر صلغته من تحت طربوشه الذى انزاح قليلا الى الورا ، لا تحس بأناقته رغم أنه يتحلى بأفخر الثياب . واذا دقت النظر لمحت ارتعاشة يده ، خاصة حين يمسح بها على جبينه من حين الى حين ، تتجول عيناه فى كل اتجاه كأنما يبحث عن شىء ، بينما استقر شاربه الكث الذى ظهرت به شعرات بيضاء فوق شفتين منطبقتين ، لا تعبران عن شىء . لقد تخطى الأربعين ، وسرى الشيب متثدا فى فوديه ، وها هو ذا يستقر فوق مقعده المرتفع أمام الساقى ، ثم يتمتم كأنما يفهم عنه الساقى ما يقول من شعر :

لا تسقنى الا دهاقا انى اسقى بكأس فى الهموم دهاق

نعم ، فشاربها يفر من هموم الحياة ، ويغرق أشجانه فى الكئوس ، ويحلق بعيدا بعيدا الى حيث عالم الرؤى ، يطلق العقل الباطن من عقاله ، لسان الحقيقة بلا زيف ولا رياء . اليس من الحق الصراح ان الموت غاية كل حى ، ومآل كل حسن ؟ لقد ملك هذا الشعور مذاهب التفكير عليه ، فتهافت على اغتنام فرص الحياة . انه محب للحياة ، مقبل عليها ، ولكن تفاؤله تحجبه بعض صور الوجود الداكنة ، فيشفق من النهاية المساوية الكبرى . وهو فى هذا شبيه بالحسن بن هانىء عاشق الطلا ، فى كثير من المواقف الحسية والنفسية ، قلق دائب بين الحياة وبين الموت ، وتردد أبدا

بين متاع الدنيا وبين رحاب الدين . ألم يسرف أبو نواس على نفسه حين فر من الحج ثم قدم الأعذار ؟ وحين كان ينتهي شهر الصوم فيستقبل هذا العطشان الى الحمر أيام العيد بقوله : « ولى الصيام وجاء الفطر بالفرح ، وايدت الكأس ألوانا من الملح » ألم يبرر شربه للخمر بنفس الأعذار ؟ ثم ألم يلدعه الندم فيصرخ مستجيرا برحاب الله ، هذه الصرخة المدوية «يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر» ، انه حين يحاول فهم ابن هانيء ، يشرح نفسيته هو ، فى القلق النافر أبدا ، والتردد الدائب بين اللذة وبين الندم ، حتى فى القصيدة الواحدة ، أعنى فى اللحظة الواحدة ، ألم يقل مثل قوله ابن هانيء :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقا تسعى الى مشتاق
الله غفار الذنوب جميعها ان كان ثم من الذنوب بواق
ما كان أكثره على الافها واقله فى طاعة الخلاق

أكبر الظن ان عصور النقلات الاجتماعية مسئولة الى حد كبير عن كل هذا ، حين تمتزج الحضارة العربية الاسلامية بحضارات أخرى طابعها الاقبال على الملذات ، فتختل الموازين والتقاليد وتزعزع القيم ، أو حين يتجاوز القديم والجديد ، والموروث والعصرى ، فى الفكر وفى الحياة الاجتماعية . أهو مجرد تبرير ؟ ليكن ، غير ان النفس تستريح اليه .

ودخل اسعاف النشاشيبي ، فاستقبله فى غير ترحيب كبير ، كأنه يفضل الوحدة التى قطعها عليه هذا النديم ، فلم يدعه يسترسل فى أفكاره ، وأحس النشاشيبي بذلك ، فبادره قائلا :

– اعرف انك ضيق الصدر هذه الأيام .
– ولماذا لا يضيق صدرى وقد مات عمر لطفى وطوى السرور

كله ، ولم يبق من الصحاب الا من انعدم الوفاء بينهم حتى أصبحت
لأوثر الوحدة .

– اليس الوفاء من رابع المستحيلات كما يقول المثل ؟

– ولكن كرم الأخلاق ليس من رابع المستحيلات ، ان الصداقة
مشتقة من صدق المودة فأين المودة بين الدسائس والغيبة والاثرة
والنفاق ، وكل هذه اللا اخلاقيات ؟ قارن بين موقفين ، أتذكر
الصحب الذى اعتدت الاجتماع بهم فى محل « صولت » ؟ لم ترتح
أنت ولم أرتح أنا لما يدور ، ولكنك غير مقيم فى القاهرة فلا يهملك
الأمر ، أما أنا فقد همست لأحد الصحاب وقد رأيت فيه الخير فقلت :
عندى موعد ويسرنى لو كنت معى قال : كما تحب واستأذنا ثم
خرجنا ، فلما سألته عن رأيه فيما يدور من أحاديث أجاب : ليس
فيها الا الاذى . قلت : ما رأيك اذا تغيبت انا غدا وتسمع انت
كل ما يقال عنى وتقابلنى بعد ذلك على ان تصدقنى فوافق ، وتم
ذلك وجاءنى فى اليوم التالى ذاكر ان السهرة انتهت بسيرتى وعلى
غير ما أحب . ثم حضرت وغاب فكان الحديث كله حول الغائب .
واتفقنا بعد ذلك على ان أبقى ويخرج صاحبى بواحد من الجمع كل
يوم لسبب يخلقه ، وهكذا حتى آتينا على أكثرهم فى بضعة أيام ،
آخرهم بالأمس ، فكان نصيب كل غائب القدر ، وما وجدنا لسوء
الحظ وفيما أو مدافعا عن صاحبه فى غيبته . قارن بين ما حدث
هنا ، وما حدث بين النوبيين الذين يعملون عندى ، حين اختلفوا
لبضعة أيام لسبب لا أذكره ثم جاءنى بعضهم ذات يوم يطلبون راتب
شهر مقدما فلما سألت عن السبب ، عرفت ان زميلهم الذى
اختلفوا معه قد أصيب ولده فى حادث وهو محتاج الى عونهم ،
قالوا ذلك ، وهم يجهشون بالبكاء . أترانى أقوى بعد ذلك على
الوثوق بالصحاب والجلوس اليهم ؟

- لقد زادك هذا الحادث احساسا بالملل وبالضييق وانت ملول بطبعك تمل قميصك نافر أبدا ولو كان فى الاستقرار والصبر نفعك . ومن أجل ذلك تفر من القاهرة الى الهرم ومن الهرم الى مصر الجديدة ومرة تتجه الى الحسين خاصة أيام الموالد ومرة أخرى تترك من تجلس اليهم من أجل تجوالك فى الأحياء الشعبية ، وأحيانا تحير من يبحث عنك فلا يعثر عليك أبدا .

أتذكر قصة الشارى الذى عقدت معه صفقة رابحة ، ولكنه تأخر عن مواعده بضع دقائق ، فاعتراك الضيق ولعنت الصفقة وهممت بترك المكان معلنا فسخها لولا ان حضر الشارى فى نفس اللحظة معتذرا فلم تكلمه حتى وصلتما الى كاتب البيوع ؟ ثم قصة الأساتذة الفرنسيين الذين حضروا لامتحان طلبة مدرسة الحقوق فدعوتهم الى جولة فى القاهرة ثم أحسست بالاختناق وانت تمر بهم فى قاعات دار الكتب وكدت تتركهم لولا خشيتك على مستقبل ولدك الطالب بمدرسة الحقوق .

ماذا أقول لك هل نسيت قصة الشاعر العجوز الذى لقيك فى « جروبي » ؟ فابتسم شوقى حتى ظهرت سز له من البلاتين - ومن الحق انه كان ركيك الشعر قبيح الوجه ، هجم عليك بسبعين بيتا ، فضقت حتى كدت تنفجر وانهلث عليه تقريبا فشجع تقريعا أحد الجالسين وانطلق كالثور الهائج يجر الرجل بعيدا .

- ولكنى أنبته على هذا التصرف وبقيت واجما ، ألوم نفسى على مجالسة هذه الجماعة من العاطلين لأنهم لا يحترمون الا أمثالهم من الفارغين فأنا لا أحب التعالى على انسان مهما صغر شأنه وكثيرا ما قابلت صغار الطلبة مرحبا ولكن سبعين بيتا من الحجر كانت كفيلة بأن تصيبنى بالدوار .

- الحق انك تأثرت لأنك تقدر الرحمة في كل مظاهرها
وتكره عنف هؤلاء الفارغين .

- بل أكره شح النفس وشح اليد .

- نعم وهذا مما نحمده لك جميعا فانت لا تبخل بمالك قط
بل لعلك تمل حمل المال نفسه فتتركه هنا أو هناك حتى تفرغ من
شرايك . ولكنك لا تستطيع أن تسحب انطباعاتك هذه على الجميع
ولا يمكن أن تمل خليل مطران مثلا .

- الواقع انه رجل « صالون » مهذب رقيق رقة شعره ولكن
يغیظني منه أحيانا تصايبه فهو دائما مع فتاة جميلة .

- ولكنه رحب الصدر يقابل النكات باسمها حتى عندما اخرجته
حين دخل ، « لابس » في صحبة غانية فقلت له « يا خليل انت
لسه ما همدتش ؟ » وحتى عندما يسخر حافظ من قبح أنفه .

- الحق ان حافظا لطيف المعشر ، يعجبني فيه سرعة بديهته
في النكتة فيحيل الجو حوله الى مشرح خالص لذا أحرص على صحبته
دائما في رحلاتي الاسبوعية الى الهرم .

- ويطيب لك ان تغيظه وتستثيره لترى سرعة بديهته في
النكتة مثلما حدث عندما قلت :

وأودعت انسانا وكلبا وديعة فضيعها الانسان والكلب حافظ

فرد على تورينك الساخرة بتورية من نوعها وهو يقول :

يقوون ان الشوق نار ولوعة

فما بال شوقي أصبح اليوم باردا (١)

(١) شوقي وحافظ لطاهر الطنحى ص ١٤٦ .

- واذا كنت تستطيب صحبة حافظ فقد أولعت بالدكتور
محبوب ثابت ، ولا يمكن ان يغير ذلك الحادث من حبك له على ماأظن .
- انه وحده الذى لا تنتهى طرائفه مع الناس .

- ولذا فقد أغرمت به فى شعرك وفى ليالى الكرمة فكل يوم
له طريقة جديدة .

- حاول منذ أيام أن يظهر شجاعته فكلفت أحد الجالسين أن
ينتظر ضابطا من أصحابنا حتى اذا حضر مثل دور واحد من القلم
السياسى حضر للقبض على الدكتور محبوب . وكان محبوب قد
أخذ يصول ويجول ويسب الانجليز ، ويكشف عن ساعديه علامة
الجهاد وبينما هو كذلك دخل الضابط وقد اصطنع وجهه الصرامة
وتقدم رافعا يده بالتحية العسكرية واعتذر لأنه حضر فى مهمة ثقيلة
وهى القبض على الدكتور فلم يكذب يسمع كلمة القبض حتى زاغ بصره
ورفت لحيته واصفر لونه وتراخت أوصاله ونظر الى الجميع ثم تظاهر
بالشجاعة ووجد القول لا يضيره بعد أن نزل البلاد . فصاح : « انظروا
الى القوة الغاشمة » . فلم يستطع الحاضرون حبس قهقهاتهم من هذه
الكوميديا وانفجروا ضاحكين ففطن الى السر وكان فرحه قهقهته أقوى
من الجميع وأسرع الى الضابط بحركة من اصبعه ولقبه « بالعيهور »
مثنى وثلاث ورياع . وبرغم هذا فقد ضقت به يوما حين استأذنت فى
الانصراف فتشبث بى ولو تشبث بى حافظ أو مطران لضقت بهما
أيضا .

ونبهه الساقى الى أنه قد أكمل الكأس الثلاثين ، فتوقف لحظات

ان كل ندمائه قد ماتوا صرعى الخمر ، حسن: رضا ، وعمر لطفى ،
وقبلهما المطرب المشهور عبد الحى حلمى . وهذه الارتعاشة فى يده . .
اليست من اثر الخمر ؟ انه يعرف الكثير من سيئاتها ، وهل هناك
أسوأ مما يرى ؟ ولكنه أسير العادة . . ، والنفس بما اعتادت منقادة
غير انه يأخذ منها لطربه ، ولا يعطيها من عقله وأدبه .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم رسلانى

زحلة

كان يقطع الطريق الضيقة الممتدة في بطن الجبل متجهاً صوب المقاهى المتناثرة فى نهايته ، ونظر الى الجبل وقد كسته الزهور والاعشاب وأشجار التفاح كأنها ثياب مزركشة بعضها فوق بعض يظهر ذيل كل منها ، وعجب لثياب الفتاة الجبلية التى تحاكي اردية الجبل نفسه ، ووجهها الذى يحاكي نضرة البيئة وزهو الوادى المفراح . وترامت الوديان على مدى النظر خضراء كاسية أو عارية الا من الوان الصخور ، وكان المساء قد أقبل فعربدت الانوار على سفوح الجبل ، وبعث المنظر فى خياله نشاطا غريبا ، فأكمل أبياتا من قصيدته التى يعدها لتلقى فى اليوم التالى بدمشق :

وربوة الواد فى جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان
واقبلت بالنبات الأرض مختلفا افوافه فهو أصبغ واللوان
واظير تصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير الحان
وقد صفى «بردى» للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن افنان

وهبت نسمة محملة برذاذ النبع المتدفق على يساره ، وتضاحك الناس وهم يجرون مبتعدين فابتسم ثم أكمل :

ثم انشنت لم يزل عنها البال ولا جفت من الماء أذيال وأردان
خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت ان طريق الخلد لبنان

أى والله انها لفردوس الأرض ، ولكن « زحلة » وحدها هى التى استأثرت بأكثر الحب . كأن الزمن قد غفل عنها فتركها صورة من الجنة الموعودة . ومن العجيب ان سلسلة الجبال تمتد من لبنان

الى سوريا ، ولكنها لا تلبث أن تتوقف لتفسح مكانا للوادي الحصيب
فتهدأ الطبيعة ويجرى نهر « بردى » وأدعا حالما .

حقا ان الشعر ابن الطبيعة والتاريخ (١) ، فالطبيعة هي أم
الفن ، فى أحضانها تتفتق المواهب وينمو الخيال الحصيب . ورؤية
ما أبدعته الطبيعة هنا ، وما أبدعه الانسان هناك ، يشهد البصيرة ،
ويمنح ذخيرة من الخبرات ، ويعصف بالقلق الذى يلاحق الفنان فى
كل حين . وأراحته الفكرة ، فكرة القلق يقذف به من حلق ، فيهوى
الى الوادى وتسحقه الصخور . أما التاريخ فهو ابو الفن ، لأن الماضى
مسرى الخيال ، وهو أشبه بهذا النبع الذى لا يجف ولا ينضب ، تنطلق
منه الأساطير والحوادث الجليلة والشخصيات صانعة البطولة . وهكذا
فعل « فكتور هوجو » قبل أن يكتب « أساطير القرون » ، وهكذا
هو أيضا ، فقد أغرم بمخلفات الطبيعة والتاريخ فى نتوء بارز من
جبل ، وفى مئذنة قديمة أو حتى ضريح مشهور ، ولا يغيظه شىء أكثر
من أن يرى الناس تسكن الى جوار أثر قديم ثم لا تعرف عنه شيئا
. . انه اهدار لجهود الآباء ورموزهم . وتذكر يوم كان مدعوا الى
الغداء عند زوج شقيقته ورأى مسجدا أثريا فكفت يده عن الطعام
وتعلق بصره بالمسجد وسأل مضيفه عنه ، فلم يجد عنده جوابا ،
وانهال عليه تقريرا ولوما . لقد كان جديرا بالتقريع ، ناظر
مدرسة تقع مدرسته ويقع بيته الى جوار أثر قديم يراه كل يوم
ولا يسأل عنه ، ما هذه الجهالة ؟

لولا هذا الالتفات ما استطاع أن ينظم قصائده التاريخية أو
بمعنى آخر ، التى امتزج فيها التاريخ بالطبيعة عبر الزمن . فقد
قرأ الكثير قبل أن يكتب فى النيل قصيدته « من أى عهد فى القرى

(١) راجع مقدمة الشوقيات القديمة : ولا شك ان هذه الفكرة قد

تعطلت بعد ذلك حين وجه منه للمجتمع .

تتدفق « ثم زار أسوان من أجل أن يرى القصور في اليم غرقى،
ويشاهد النقوش الباقية على الأيام ، قبل أن يكتب قصيدته فى قصر
« أنس الوجود » .

ان الشاعر يطوى السنين القهقرى ، وينفض عن كل أثر غبار
الدهر ، فيعيش بين الاحراش وفوق الجبال وعلى رمال الصحراء فى
ذلك العالم المسحور لحظات يتوقف فيها الزمن . وترامى الى سمعه
صوت المغنية ينساب عذبا رقيقا بأبياته فى « زحلة » :

يا جارة الوادى طربت وعادنى
قسما لو انتمت الجداول والربى
مراك مرآه وعينك عينه
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة
سكنت نواحي الليل الا أنية
ما يشبه الاحلام من ذكراك
لتهلل الفردوس ثم نمالك
لم يا زحيلة لا يكون أبالك
صنين والحرمون فاحتضناك
فى الايك أو وتراشجى حراك

وعندما جلس الى رفيقه الذى كان بانتظاره ، حياه الجالسون
وقد عرفوه ، وسرت هممة بينهم تفصح عنه لمن لم يعرفه ، ثم ام
يلبثوا ان استغرقوا فى السماع ، ولم تعد هناك الا آهات تسمع
من حين الى حين تقطع سكون الليل . ومال عليه رفيقه هامسا :

- ترى من جارة الوادى ؟

- انها أمامك .

- ليس أمامى الا هذا الفحل ، زوج المغنية .

- أقصد المغنية نفسها ، فما جئت هنا الا واحببت ان أستمع

اليها ، فصوتها حنون رغم ان أفقها ضيق .

- وهل لك جارة فى كل واد ؟

– الحق أنى انفعل بالحب لكل بلد اسلامى حبه الطبيعة جمالا ،
وحياه التاريخ آثارا ، مثل الآستانة التى اغرمت بها حتى اشترت
هناك منزلا .

– أظن ان الحديو هو الذى اغراك بهذه الرحلات الى الآستانة ،
فهو يذهب اليها كل عام .

– كنت أستطيع الاعتذار لو أردت ، وقد اعتذرت عن السفر
فيما هو أخطر ولكن الدافع كان قويا ، والاغراء جاء من كل اتجاه ،
خاصة حين احتفى الخليفة بى وأنعم على وقربنى .

– وهل كان « عبد الحميد » يهتم بشيء ؟

– الواقع انه كان رجلا متواضعا متقفا عكس ما يشهـر
الاستعماريون عنه ، فقد أرادوا تحطيمه ليرتعوا فى ممالكه . الم يدع
الى جمع الشمل ؟ الم يقل لهرتزل الصهيونى عام ١٨٩٦ « لا أقدر
أن أبيع قدما واحدا من البلاد لأنها ليست لى بل لشعبى . وسوف
نغضى الارض بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا » ؟

– ربما كانت قطرات الدم التركى هى التى ربطتك عاطفيا
بدولة الخلافة .

– ربما ، ولكن الرابطة الدينية هى الدافع الاقوى كما تدفعنى
وطنيتى الى الاشادة بمصر ، ولا تعارض بين العاطفتين ، فتلک فلسفه
الحزب الوطنى ، ولا تنس انى أحب لبنان وسوريا نفس الحب .

– وجارة الوادى ؟

– نعم ، وجارة الوادى .

وكانت المغنية قد انتهت من اللحن ، فتعالى التصفيق ، وتقدم
رفيق شوقى يسألها عن الشاعر الذى نظم هذه الأغنية الجميلة ،

فأشارت بكل زهو ناحية الفحل الجالس ، وقالت : زوجي ، وضج
الحاضرون بالضحك (١) .

وقام يقطع الطريق مع رفيقه الى دمشق تلبية لدعوة « محمد
العابد (٢) » ، وانطلقت السيارة بهما في سرعة جنونية ، تلتوى
التواء الجبل ، وهمس شوقي لرفيقه : اقرأ سورة « يس » فهكذا
السواق في لبنان . وقبل أن يتم كلمته كانت السيارة تتلوى
مرة أخرى لكن حول نفسها ثم توقفت . وقاما في أسوأ حال ، ولكنهما
نظرا فوجدا الهاوية السحيقة على بعد أقدام قليلة فاجفلا واستهانا
بالرضوض وألها الطفيف .

وفي صباح اليوم التالي كانا في طريقهما الى صلاح الدين
يقطعان الصباح في الزيارة قبل تلبية الدعوة . والتفت شوقي
الى رفيقه متسائلا :

— ألم تقرأ شيئا عن صلاح الدين ؟

مراجعتنا في قمتور علوم إسلامي

— بلى .

— اذن تفخر بهذه الزيارة التي نقوم بها .

— لا شك .

وعندما وقفا أمام الضريح أخذ ينقل الطرف حوله وينظر الى
ما سطر بالحوائط وهو يهمس : « هذا هو الخلود . هذا همه ، هذا
أمه ، هذا مجد ، هذا فخر ، أنظر كيف طوته الأرض وهي أبدا
تطوى ، ولكن ذكره باق حتى تطوى الأرض السماء (٣) ثم أغرورقت
عيناه بالدموع .

(١) اثنا عشر عاما لاحد عبد الوهاب ص ٦٠ .

(٢) رئيس الجمهورية فيما بعد

(٣) اثنا عشر عاما ص ٥٦

ان الرواية لم تتم فصولا

كان صيف عام ١٩١٤ حارا ملتهبا ، فقد دخلت انجلترا الحرب ضد المانيا في أوائل أغسطس لذلك شرعت منذ اللحظة الاولى تمهد الاذهان وتهيء الظروف لاحداث التغيير المنتظر في مركز مصر القانوني ، وكانت انجلترا علم تعلم اليقين ان الدولة العثمانية ستحارب الى جانب المانيا ، ولم يمض قليل حتى كان الاتحاديون في تركيا يحالفون الألمان في سبيل ما يحلمون به من سيادة السلورانية، فزجوا بتركيا في حرب لا مصلحة لها فيها ، على الرغم من معارضة الخليفة «محمد رشاد» وأعلن الخليفة الجهاد مضطرا ، ودعا اليه المسلمين في أقطار الأرض ، ولكن دعوته لم تثمر الا قليلا . فالندين تأثروا بها من مسلمي الهند ومصر لم يكونوا في واقع الأمر يملكون سوى العطف عليها بقلوبهم . وأما الشريف حسين فلم يكن رجال تركيا الفتاة في نظره الا مجموعة من الملاحدة ، ولم يستطع أن يستسيغ هذه الدعوة العجيبة الى الجهاد الاسلامي مع اشتراك دولة مسيحية فيه وهي ألمانيا ، ولذلك أخذ يماطل في دعوة الاتحادين أياه الى تأييدهم .

وكانت الغيوم قد تلبدت قبل ذلك في سماء السياسة العربية التركية ، والصراع يحتدم بين فكرة العروبة وفكرة التتريك ، ويئس العرب من الاتحادين ، وبدأوا ينفضون ايديهم عن الآمال التي علقوها عليهم ، ورأوا ان العمل الايجابي قد حان وقته ، وهكذا اكتسبت « القومية العربية » أنصارا عديدين في وقت سريع ، وأصبحت عاطفة تملأ القلوب (١) .

(١) القومية العربية والشعر المعاصر للمؤلف ص ٢٨ وما بعدها .

ومن الطبيعي ان يفكر القوميون العرب في مصيرهم بعد ان اتضحت خطة الحكومة التركية ، وان يوازنوا بين خطة الدوام على السكوت وخطة الانقراض على الدولة الى جانب الحلفاء . فالسكوت نهايته مرة على أى الحالين ، اذا انتصر الأتراك ، فالتتريك هو النهاية المحتومة للبلاد العربية، واذا انتصر الحلفاء فالعرب أعداء حرب . أما خطة الثورة على الأتراك ، فان نهايتها أحد أمرين ، أما أن ينتصر الأتراك فتكون النهاية السابقة وهى التتريك ، وأما أن ينتصر الحلفاء ، وفي هذه الحالة تبقى البلاد محتفظة بكيانها القومى ، وبلغتها العربية . ويخطئ من يظن ان الثورة العربية قامت على أكتاف الحسين بن على وآله وحدثهم ، فالحقيقة ان تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية .

واسرعت الاحداث فى مصر ، فقد أعلنت الاحكام العرفية ، وفرضت الرقابة على ما ينشر من الصحف المحلية وقبضت سلطات الاحتلال على جميع أعضاء الحزب الوطنى كما قبضت على الكثيرين لمجرد الشبهات وتبع ذلك نفي وتشريد وتحديد اقامة وطلبت من هيئة كبار العلماء ان تصدر منشورا تنصح فيه الناس بالتزام الهدوء والسكينة . ثم أقدمت على خطوة أخرى فخلعت الحديو عباس الذى لم يخف عواطفه وميوله الودية نحو العثمانيين ، وكان فى ذلك الوقت مريضا بتركيا . وقبل السلطان حسين كامل العرش ، ولكن الشعب قابل الموكب السلطانى بالوجوم وارتسم الحزن على الوجوه نتيجة كل تلك الاحداث ، وتوالت بعد ذلك الاغتيالات السياسية .

فى ذلك الصيف الحار ، كان شوقى فى الاستانة عندما أعلنت الحرب فى شهر أغسطس ، وقد رغب فى البقاء الى جانب الحديو عباس الذى كان طريح الفراش بعد اطلاق الرصاص عليه ،

ولكن الخديو الح عليه في العودة لأن الحرب سوف تطول خاصة وقد كانت الأخبار الأكيدة تتواتر في ذلك الوقت عن قرب دخول تركيا الى جانب المانيا ، فاذا ما انقطعت المواصلات فسوف يكون من العسير عليه بأسرته الكبيرة أن يبقى دون مشقة ، وهكذا عاد على ظهر آخر سفينة متجهة من تركيا الى مصر .

ولكنه لم يكد يصل ثم يعزل الخديو ، حتى أخذ عدد زوار « الكرمة » يتناقص يوما بعد يوم ، بل صار الأصحاب يخشون لقاءه وفتشت « الكرمة » من قبل سلطات الاحتلال وأحس ان أياما عسيرة تنتظره خاصة بعد ان قال قصيدته في السلطان الجديد ، مشيرا الى أن الحوادث لم تنته وان الرواية لها بقية ، فتولية حسين مؤقتة ، ومن يدري ماذا تلد الليالي ؟ ومن أجل ذلك قدم استقالته من القصر ، وقبع في بيته بالمطرية حتى استدعى للمحاكمة .

وتوالت على ذهنه مشاهد متتابعة ترى من أين يؤخذ ؟ ان له شعرا كثيرا في ضروب الوطنية منذ أكثر من خمسة عشر عاما . انه يذكر قصيدته التي نشرها المؤيد في ١٨/٢/١٨٩٩ بمناسبة الاحتفال باقامة تمثال « دلسبس » ، يوم اقامته شركة القناة الأجنبية ، ثم دعت الخديو الى الاحتفال ، فقال أبياته التي تصور مصر طاهية للعالم ، ولكنها لا تنال شيئا من الطعام الذي طهته :

كم مثلت بمجاليتها ورونقها
والقوم في مصر ما طافوا بملعبها
حتى جرى الماء في اثنائها ذهباً
فكل مائدة بالخلق حافلة

جد الشعوب واقدام الحكومات
الا كما شهد انهر الروايات
يسقى ممالك لا تروى ودولات
ومصر من خلفهم طاهى الوليمات

وهو يبغض الاحتلال ويحتقر من يتملقه ويتقبله مهما كان مركزه ، تعود به الذاكرة الى شهر مايو عام ١٩٠٤ ، حين أقامت

جمعية العروة الوثقى بالأسكندرية احتفالا لوضع الحجر الاساسى
لمدرسة محمد على الصناعية ورأس الحديدو هذا الاحتفال واعتذر لورد
كرومر . والقى « رياض باشا » كلمة امتدح فيها الاحتلال فقوبلت
بالسخط ، وحمل عليها مصطفى كامل ، واتهم رياض بالتملق على
حساب الوطن من أجل الوزارة (١) .

ويومها قال قصيدة نارية ، صب فيها جام غضبه على رياض
واتهمه بالدلة والجحود وبلادة الحس لأن الوطنية كانت تقتضيه
أن يهيب بالشباب لينهضوا خفافا الى مقاومة الاحتلال :

عمرت القوم اطراء وحمدا	وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس انك فى الثريا	فكيف اليوم أصبح فى الرغام
لهجت بالاحتلال وما أتاء	وجرحك منه لو أحسست دام
فهلأ قلت للشبان قولا	يليق بحافل الماضى الهمام
يبث تجارب الأيام فيهم	ويدعو الرابضين الى القيام
أراعتك مقتل من مصر باق	فقمت تزيد سهما فى السهام
فياتلك الليالى لا تعودى	ويا زمن النفاق بلا سلام
أحبك مصر من أعماق قلبى	وحبك فى صميم القلب نامى
وانظر جنة جمعت ذئابا	فيصرفنى الاباء عن الزحام
وهبتك غير هباب يراءا	أشد على العدو من الحسام

واذا كان الاغضاء ممكنا عن هذا . . فهل يمكن أن يكون يوم
هاجم كرومر بقصيدته اللامية التى رد فيها على ما اتهم به المصريين
من العقوق وما أنذرهم به من دوام الاحتلال البريطانى وما وصف
به حركتهم الوطنية بأنها حركة مفتعلة كاذبة ، وما رمى به مصر
والمصريين من تفكير غريب غامض ، كل ذلك فى غطرسة شديدة ؟
ان كرومر قبل ذلك كان قد نصح الحديدو بالابتعاد عن على يوسف

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ قسم ٢ ص ١٢٠

ومصطفى كامل وأحمد شوقي (١) ، لقد كان ممثل الاحتلال يخشى من خطب مصطفى كامل النارية ومن شعره البعيد الاثر ، ويدرك ان الصلة بين الزعيم وبين الشاعر لا يمكن أن يقطعها الا الموت ، فهي قديمة منذ أيام طلب العلم بفرنسا وتكوين الجمعية الوطنية هناك ، ومن أجل ذلك اهدى مصطفى كامل مسرحيته الى عمه « على شوقي » والد صديقه ، والشاعر والزعيم كلاهما متعصب لمبادئ الحزب الوطنى بل أكمل كل منهما شعار الحزب ، فعندما قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » اكمل له الشاعر ولا يأس مع الحياة » . وعندما انقطعت الصلة بين الخديو وبين مصطفى كامل لم تنقطع بينه وبين صديقه الشاعر . واذا كان بعض الكتاب يتهمه بأنه تأخر كثيرا فى رثاءصديقه حين مات ، فانه فى الواقع قد بدأ نظمه فى نفس اليوم الذى ودع فيه مصطفى كامل الحياة (٢) ، ولكنه اتمها بعد أيام ونشرها بعد وفاة مصطفى باثني عشر يوما (٣) ، حين بدأ يزول أثر الصدمة التى جمدت القلم فى يده والدمعة فى عينه ولكنه حقيقة لم يرث زعيما وطنيا وانما رثي صديقا .

وهو لا يمكن أن يتنكر لرجال الحزب الوطنى أو لمبادئه مهما عصفت العواصف فعندما هاجمه محمد فريد عقب الجفوة العابرة التى وقعت بينهما بعث اليه بخطاب نارى يرد به هجوم « اللواء » فى كل ما ذكرته الجريدة ، انه خطاب نارى حقا ، قال فيه يومئذ :

عزيزى محمد بك فريد

أراك أيها الرئيس الكريم قد خفى عليك مكان وطنيتى ، فهل تأذن لى أن أدلك عليه ، ولا فخر ، فقد أخرجتنى احياجا ، وأخرجتنى

(١) مصطفى كامل للرافعى ص ١٧٥/١٧٨ .

(٢) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٥

(٣) اللواء ١٩٠٨/٢/٢٣

من خلقى اخراجا ، فاذا زهوت واستكبرت مرة في العمر ، فأنت كريم
والكريم يغفر . وطنيتى أيها الرئيس هي في فؤاد ولدك الصغير ،
فاذا انقلب اليك من المدرسة فادعه يتل عليك من آياتها ما يخفق له
فؤادك ، وتهتز له جوانحك اهتزازا ، لأن فريقا يهزون الرضيع في
مهده ، وفريقا آخر يوحون الوطنية الى الناشئ في درسه ، أولئك
هم المفلحون .

وطنيتى تطيف بكل حجر القى أساسا للعلم في هذا القطر ،
من الجامعة الى النادي الى أمثالهما من مصادر الحياة الحقيقية للأمم
والشعوب ، يعرف ذلك ويذكره المؤسسون . وطنيتى هتف بها
البدو وتغنى بها الحضر ، وجاوزت الاعاجم من ترك وفرس ، فهي
معلقة على جدران قصورهم ودورهم ، يقرأها هنالك القارئون .

وطنيتى في الاهرام ، كان قلمي في قمته وكانت هممى في
خدمته وكان صاحبه بشاره تقلا يحبنى كما يحب واحده جبرائيل
تقلا ، وليس وراء الحب غاية في الاحترام . وطنيتى في المؤيد
مدرسة الوطنيين الاولى . وطنيتى في اللواء الذى كان صاحبه الوفى
الكريم يتلقى الكلمة منى كما يتلقى سنة تقوم لجريدته عرفانا
بالفضل ، والفضل يتذكره الخيرون .

وطنيتى مخبأة في مقبرة سلفك العظيم مصطفى كامل ، فطف
بها وناجه ، يخرج اليك من جانب القبر صدى الصدق ، صدق
للحق ، صدى الحياة التى لم يتغلب عليها الموت ولا تمكن منها البلى
صدى الشباب الذى نصفه في الجنة ونصفه لا يزال في هذه الدنيا
يملؤها ويسرى فيها - هذا الصدى يقول : شوقى هو همزة اللواء
طالما تباهى به وافتخر واعتز به وانتصر وهو أصدق من نظم فيه
ونثر في وقت عز فيه الصادقون .

وطنيتي في الشوقيات قليلها الذي ظهر وكثيرها المستتر ،
وفي «عذراء الهند» و «دل و يتمان» و «لادياس» و «بنتاءور» ولو
اطلعت على واحد من هذه الآثار التي تقتنيها ربوات الجمال ، ويفهمها
الرجال والاطفال ، لعلمت - كما علم كثير من العقلاء قبلك - اننى
كما وصفنى المرحوم مصطفى كامل ذلك الغدير الصافى فى لفائف
الغاب يسقى الارض ولا يبصره الناظرون (١) .

والحقيقة ان هناك هفوة ، كلما ذكرها أحس بالندم وبالضيق
يستبدان به ، لقد كانت تلك السقطة مع أحمد عرابى عندما عاد من
منفاه عام ١٩٠١ وكان أشد الناس قدحا له مصطفى كامل وجريدة
اللواء والحزب الوطنى وقد جاراهم فكتب ثلاث قصائد هاجم فيها
عرابى ولكن ألم يكن لعرابى روحه الوطنية الطموحة ؟ لذلك قرر
ألا ينشر هذه القصائد فى ديوانه عندما يطبعه . وقد تهيأت له
فرصة الاعتذار عندما كان قادما من الاسكندرية الى القاهرة ، فقد
وجد عرابى يدخل عليه «الصالون» فى القطار راكبا من طنطا ولكن
عرابى لم يكذب يراه حتى تجهم له ثم ترك المكان خارجا .

ولكن ترى ماذا يأخذون عليه ؟ انه متعاطف مع الحركة العربية ،
فليست للمسلمين ناقة ولا جمل فى دخول الحرب ، وقد ذكر ذلك
كله فى قصيدته التى نشرها المؤيد فى ١٨ نوفمبر ، حيث قال :

نزل البلاء وحل طوفان دم

بالمسلمين سماؤه لا تقلع

ماذا اندفاع المسلمين بموقف

الغالب المنصور فيه مضعضع

ولكن ذلك ليس موضع مؤاخذه ، أغلب الظن انهم يأخذون

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٢١ .

عليه شيئاً من قصيدته في السلطان الجديد «حسين كامل» ، ولعله بيته الذي يذكر فيه «ان الرواية لم تتم فصولاً» . فقد كثر اللغظ حوله وحول ما يحمل من مغامز سياسية ، هذا علاوة على ان القصيدة برمتها يشيع فيها الحزن مما لا يتناسب مع موقف التهئة . والعلاقات نفسها بينه وبين «حسين كامل» ليست على ما يرام ، لانه سبق ان عرض به في قصيدته التي قالها في « كرومر » فقد كان «حسين كامل» رئيساً لحفل الوداع الذي أقيم لكرومر ، وسمع باذنيه غطرسة كرومر وهجومه . فقال فيه يومئذ «شهد الحسين عليه لعن اصوله» . مهما يكن من أمر ، فان الغد قريب ، وسوف تتكشف الامور فيه .

ولم تطل حيرته فلم يدم التحقيق طويلاً ، وكان كما قدر من قبل حول البيت السابق ، ثم افرج عنه ، فالبيت يلمح ولا يصرح ويرمز ولا يقول في وضوح ، فماذا يستطيع المحقق أن يقول فيه ؟ على أية حال . . . لقد قرر أن يبقى في بيته بالمطرية الى حين ، والا يقول شيئاً حتى ولو كان نجاة السلطان من الاغتيالات . فلا يمدح ولا يهنيء ولا يجامل ولا حتى يرثي ، ان كان هناك مجال لشيء من كل هذا ، انه اعتكاف وصمت .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامي

الباب الثالث

الغريب

فى برشلونة

ما أكثر الأوقات التى أحسن فيها بانقباض قلبه ، ولكنه اليوم شديد الانقباض أكثر من أى يوم مر به خلال الشهور الماضية الكئيبة . لقد اشتطت حكومة «حسين رشدى» فى القاء القبض على الناس والتحقيق معهم بعد القاء القنبلة على السلطان «حسين كامل» فى الاسكندرية . انه يعلم ان سلطات الاحتلال تنتهز هذه الفرص للتخلص من كل من كانت له صلة بالخديو ، ويعلم ثورة السلطان ورغبته فى الانتقام من كل فرد يشك فيه ، ترى كيف تكون وسيلة انتقام السلطين ؟ .. مهما توالى الاحداث فقد ضاق به الانتظار ومل هو الترقب فى كل حين . وذكر صديقه الذى رآه فى الطريق فانحرف الى الجانب الآخر من الطريق ، متجنباً اياه ، فكادت تفر من عينه الدمعة ، أهكذا بلغ به الامر أن يفر منه الاصحاب وكانوا لا يتركون له لحظة يستريح فيها ؟ .. أهكذا بلغ به الهوان أن يتوقع التفتيش والاعتقال وما هو فوق ذلك فى كل حين أكل هذا من أجل قصيدته ؟ انه غير نادم على قولها ما دامت قيمة الكلمة قد بلغت هذا الحد . وانتسلته من غمرة الانفعالات طرقات عنيفة متوالية ، لقد صدق حدسه ؟ انه أمر من السلطة العسكرية بمغادرة الوطن .

ان شتى الأحاسيس تثور فى وجدانه ، أهو النفى أخيراً ؟ انه أقسى أنواع العذاب ، ثم يهدأ قليلاً فيرى أن النفى سوف يخلصه على أية حال من القلق الطويل الذى عاناه ، ومن أمثال هذه الوجوه التى ضحت بالصدقة على مذبح الخوف ، ورمت النقاب دون حياء . ولكن أى البلاد يختار ؟ انه يستطيع أن يتخذ بلداً أوروبياً ، ولكن حينه

سوف يرضيه ، ان روائح الشرق لا تفوح الا من اسبانيا ، فلتكن
منفاه وملجأه •

الخامس من أغسطس عام ١٩١٥ ، تاريخ لا ينساه ، لقد اعتاد
صيف كل عام أن يرحل الى أوروبا أو تركيا ، وأن يترك القاهرة
مبتهجاً برحلته ، ولكنه اليوم يركب القطار الى السويس وهو أشقى
الناس • انه طائر اللب زائع البصر يستمع الى والد زوجته وهو
يحاول أن يبعث الطمأنينة الى نفسه ولكنه غائب عنه في الحقيقة ،
ليت نبوءته تصدق فلا تطول الحرب . وأشد ما يعذبه أن يترك أمه
المريضة بحلوان ويرحل دونها ، وهو لا يدري ماذا تخبئه الايام •

كانت سفينة بضاعة صغيرة قديمة ، والمضطر يركب الصعب ،
فلم يكن لديه الخيار ، حمل اليها كتبه وأبنائه جميعا وزوجه ثم
بعض خدمه • وصعد اليها معه أربعة من الرعايا الالمان والنمساويين
أمروا بمغادرة مصر أيضا ، وكان بالسفينة شحنة كبيرة من الثيران
ذاهبة الى حفلات المصارعة في اسبانيا • وعوت الباخرة ثم انطلقت
في القناة متجهة الى بورسعيد • وانتبذ الشاعر مكانا قصيا ، ثم
جلس وحيدا ، واحترم الجميع وحدته ، فلم يقطعها عليه أحد •

« ان للنفي لروعة ، وان للنأي للوعة ، وقد جرت أحكام
القضاء ، بأن نعب هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ،
والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ،
يهزأ بالدمع وان لم ينسجم ، نفانا حكام عجم ، أعوان العدوان
والظلم ، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون في أرسان
يسموننا الحكم • ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه
أو يضعوه ، سامحهم في حقوق الافراد ، وسامحوه في حقوق البلاد ،
وما ذنب السيف اذا لم يستح الجلاد » (١)

(١) أسواق الذهب ص ٢٩ •

وتتوالى على مخيلته مواكب التاريخ الحافلة تعبر منطقة القناة
أو تقيم فى مصر منذ يوسف عليه السلام الى عمرو بن العاص ومن
صلاح الدين الى الاحتلال البريطانى ، ما أكثر عبر التاريخ ، وما
أعجب ما آل اليه أمر مصر ! لو تدبر المصريون تاريخهم المجيد لثاروا
مرة ومرات . وطوى أوراقه بعد أن رأى ولديه يقبلان ، فأضاف
جملته الاخيرة « ثم انظروا اليوم ، تريا القناة فى يد القوم ، ان أمنوا
ركزوها ، وان خافوا هزوها » وكانت الباخرة قد عبرت بورسعيد
وانطلقت الى البحر المتوسط ، ثم غابت الارض من كل جانب .

لحظات مرت . . نعم لحظات . . فقد كان الوقت عصرا ، ثم
هبّت عاصفة هوجاء ، وأصبحت السفينة ارجوحة فى أيدي الامواج .
وأصاب الركاب جميعا دوار البحر ، ولكن الطبيب النمساوى الذى
كان بالسفينة حاول بكل جهده أن يخفف من وطأته . وتعالّت تراتيل
الرهبان ، واستبد الرعب بالجميع . وأقبل الليل فلم يغمض لواحد
جفن ، فضربات الموج على جانبي السفينة ، وزمجرة الرياح ، وتراقص
السفينة بمن فيها ، منع النوم عن العيون ، وأصاب الجميع بوسواس
كئيب ، وتوهموا النهاية المفجعة ، والموت من حولهم يسبح . وعندما
طلع النهار كئيبا غاضبا ، وازداد هدير الامواج وارتفاعها كالجبال ،
رأى القبطان ازاء خطورة الامر ، أن يخفف من عبء السفينة فيلقى
فى البحر كل الحمولة من الثيران . وتوسل اليه الشاعر الرقيق أن
يتريث حيناً ، عل الغمة تنقشع ، فلم يعبأ بتوسلاته ، وبدأ يلقيها
جماعة اثر أخرى ، فتحاول العوم حتى اذا كلت أسلمت نفسها
للقضاء وهى تخور خوارا مؤثرا . وبعد يومين عاصفين ، هدأت
غضبة البحر ، فهدأت الامواج ، وسكنت الرياح ، وأشرقت السماء ،
وسأل الشاعر ابنه : أدعاء الراهبان يا أبى هو الذى أنقذنا من

الغرق ؟ فأجاب : بل دعوات جدتك الطيبة يابنى وبركاتها (١) .
ومن بعيد تراءت طيور الماء البيضاء محومة فى الجو ، وشقت السفينة
طريقها الى ميناء برشلونة .

أقام الشاعر عدة أسابيع فى فندق بقلب المدينة ، ولكن
نفقاته كانت باهظة وعلى الأخص بالنسبة لأسرة كبيرة مثل أسرته ،
كما أن ما يرسل اليه من مال كان محمدا بأمر السلطة العسكرية ،
حتى لا يستطيع على حد زعمها ، أن يساعد به أعداء بريطانيا لذلك
لم يلبث أن استأجر منزلا فى ضاحية من ضواحي المدينة تدعى
« فلفدريرا » وهى مرتفعة كثيرا عن قلب المدينة ، ومن هنا كان
باستطاعته أن يشهد بسهولة ميناء المدينة والبحر المتوسط .

كان فى « برشلونة » مصرى واحد يعرفه شوقى من مصر ،
وهو غريب الأطوار ، شاذ التصرفات ، يعيش سنة كاملة فى تقدير ،
ثم لا يلبث أن ينفق ما أذخره فى لحظة واحدة . وكان هناك تاجر
سورى من المهجر ، جمع ثروته الكبيرة وأراد العودة الى وطنه
فاحتجزته الحرب ، وأخذ يقضى وقته فى المضاربات المالية ، حتى
فقد ثروته كلها وقرر العودة الى المهجر ثانية ليبدأ من جديد ، ولعل
الشخصية الوحيدة التى ارتاح اليها هى شخصية الطبيب
النمساوى . وهو رجل بوهيمى لا يحفل بالمظاهر ولا يتقيد بموعد .
كان لا يملك فى عيادته الا المدة الكافية لجمع نفقات شهرته ،
فلسفته قائمة على اقتناص الفرص ، لأن الحياة قصيرة . وهكذا
وجد شوقى نفسه وحيدا غريبا .

ولأول مرة يمنح نفسه كلها لأسرته وأبنائه ، وبدأ يتذوق
طعم الحياة الأسرية ، بعد أن كان مستوفزا كالطير ، نافرا أبدا .

(١) أبى شوقى ص ٣٤ .

بدأ يعطى أبناءه دروسا فى اللغة العربية فارتبط بالبيت وبالأبناء ، بعد أن كان يكلف من يقضى لأبنائه حاجاتهم ، فكيف اتسع صدره ووجد الصبر الذى يدفعه الى قضاء الساعات فى تلك الدروس دون ملل ؟ انه النفى والغربة والوحدة . ثم شرع فى تعلم اللغة الأسبانية ، وقد تعلمها فعلا ، ولكن نطقه لها لم يكن سليما ، لذلك كان يثير ضحك أبنائه كلما أخطأ فى النطق أمامهم ، مما يدفعه الى الغضب والى الصياح بهم لزجرهم . والواقع انه لم يكن متحمسا لتعلم الأسبانية ، فكثيرا ما كان يمسك كتب النحو الأسباني ، بينما هو سابع فى أودية الخيال مع ربة الشعر ، فيغطى غلافه بأشعاره . ولكن لا النظم ولا الدروس يمكن أن تستغرق أكثر من وقته ، فالقراء وحدها هى القادرة على التهام أوقات الفراغ ، وهكذا عكف على قراءة كتب الادب العربى التى كان قد حملها معه ، واستوعب منها ما لم يكن قد استوعبه من قبل ، حتى أحس انه ليس فى الادب العربى كتاب لكبار الادباء لم يقرأه قراءة واعية (١) .

ثم أرسل الى صديقه أحمد زكى بمصر كى يبعث اليه بمجموعة أخرى من الكتب يود قراءتها ولكن السلطات فى مصر لم توافق ، وأعادت الكتب الى مرسلها مرة ثانية .

ولأول مرة يصطحب أسرته فى نزهاته ، فتخرج معه زوجه وابنته وولده ، وهو أمر لم يكن متيسرا فى مصر بسبب الحجاب ، الذى لم يقض عليه الا فى خلال الثورة المصرية . فيقومون برحلات فى ضواحي «برشلونة» الفاتنة ، التى جمعت بين الجبل وبين البحر . كانوا يؤثرون النزهة فى الاودية والجبال خاصة فى فصل الربيع ، فللغابات رائحة الجنة ، مصدرها أشجار الصنوبر ، ويصعدون

(١) شوقى وحافظ للطناحى ص ٨٦ .

أحيانا الى قمم الجبال حيث يصبح السحاب فى متناول الايدي ، ثم حيث يتقاذف الصغار قطع الثلج فى حماسة ومرح . وكثيرا ما يتجهون الى الغابات وهى مناظر غير مألوفة لديهم ، فهناك تتكاثف الاشجار وتتضخم ويحس المرء بوحشية الطبيعة البدائية ، ولكن هذه البدائية نفسها مبعث راحة لانسان المدينة الذى ضاق بالآلة .

لقد تحمل أيامه فى المنفى ، ومضت لياليه هادئة حيناً ، أرقه تجتر أحزانها حيناً آخر ، حقا ان للمنفى لروعة ، وأعز شئ أضناه فراقه بعد الوطن هو أمه المريضة . لقد كان يحسب ان الحرب شهور قصيرة الامد ، بل كان يمنى نفسه بأحلام العودة ، وهامى ذى الايام تمضى والسنوات تمر وتتبدد الاحلام ، ويعانى انقلابا نفسيا ، دفعه الى رفض دعوة «عباس حلمى» للحاق به فى «النمسا» على ظهر غواصة ، فهو لم يعد عند نفسه شاعر الحضرة الفخيمة الحديوية . ومما يزيد احساسها بالشقاء ، انقطاع المال عن الوصول اليه ، على اثر ما نشرته احدى الصحف الانجليزية التى تصدر فى لندن حول شاعر عربى كبير يقيم فى أستبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة الحلفاء (١) فمن أين أنت الصحيفة بهذا الخبر الذى أثار سلطات الاحتلال وأقعدها ، فقررت الانتقام منه ؟ وماذا يصنع ان طال الحرب وطال انقطاع المال عنه ؟ ستة أشهر كاملة لم يصله شئ ، حتى باع حلى زوجه وابنته ، وأوشك ما معه من مال قليل على النفاد ، هل يتصور أبناؤه جوعا فى المنفى ؟ هل يستجدى ؟ لقد بدأ يعرف كيف ينفق بحساب وتلك ميزة كسبها من المنفى ، حتى الخمر التى كان لا يصبر على فراقها ، كف عن شربها ، فلعل الله أراد به خيرا ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ان حيرته تطول وليس هناك من حلول .

(١) ابى شوقى ص ٥٢ .

وسط هذا الجو الخانق الذي عاشه في هذه الفترة ، رأى يوماً وهو يركب إحدى السيارات العامة رجلاً قبيحاً ضخماً عجوزاً، عليه آثار النعمة والثراء يتحلى بسلسلة ذهبية ، يجلس أمامه ، وما لبث هذا الرجل ان غط في النوم ، وجلس يتأمله ويعجب للاقدار التي منحت مثل هذا المسخ العجوز كل هذه النعمة البادية، بينما هو وأبناؤه غرباء يكادون أن يتضوروا جوعاً ، مفارقة من مفارقات الاقدار أوحث بها المقارنة ، وأوحث بها حالته النفسية ، بل هناك آلاف الشباب في مستقبل العمر يحاولون بناء حياتهم ، وهم أشد بؤساً ، وأكثر فقراً ، ضنت عليهم الدنيا حتى بالكفاف . وفي هذه اللحظة صعد الى السيارة شاب نحيل وسيم الطلعة ، أبرقت عينه حين رأى السلسلة الذهبية ، ومد يده ولكنه رأى شوقى يراقبه ، فأشار اليه مستأذناً ، فأوماً اليه بالموافقة فنشلها ونزل من السيارة . ان المجتمع هو المسئول عن كل انحراف ، ترى أيكون المجتمع مسئولاً عنه أيضاً ، ان ساءت حاله ، أكثر مما هو فيه ؟ وأجفل من مجرد التصور . وتذكر ان السفير البريطاني في مدريد يستطيع أن يتدخل في الأمر ، فهو شاعر ، ويذكر جيداً أنه التقى به في «برشلونة» من قبل ، ولا شك انه لن يرفض مطلبه .

الحنين

يا ساكنى مصر انا لانزال على
عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل الا عن أمانينا

غناء حزين ونفس حزينة ، وهل يملك الا الحزن، لقد استحال
ذوبا من الحنين الخالص ، وأضناه الشوق ، وفاحت أبياته بزفراته
الحارة . لقد أرسل هذه الابيات الى صديقه الشاعر حافظ ابراهيم
«شاعر النيل» ، والنيل يذكره بوطنه الذى افتقده ويذكره بصديقه
وبأحبابه وبأمه وبكل مكان كانت له فيه ذكريات . وأتته أبيات
حافظ بلسما لجراحه :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ربي مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه
وقد نأينا وان كنا مقيمينا

نعم ان بلبل مصر صاد أحرقة الظمأ ، يتلهف على قطرات ماء
النيل فيدفع عنها ، بينما الأجنبي يعب منه مرة ومرة ومرات .

ولكنهم يحسون في مصر بظمئه وهذا ما يسكت أنين جراحه الى حين .
غير أن القلق يعاوده ثانية فيبعث الى اسماعيل صبرى « شيخ الشعراء » بأبيات انداحت فوقها عبراته ، ويجيبه صبرى ولكنه لا يهدأ . ومن أين له الهدوء ، وهو فى كل يوم يشاهد السفن فى الميناء ، طويل أنينها ، طول لوعته ، فلم يعد قادرا على الانفعال الهادر ، وانما أصبح صوته أشبه بالنأى رمز الحزن الابدى ، والعذاب الذى لا نهاية له ، عذاب الجريح وأحزان الغريب ، وأنات المشوق ، وتمتت شفتاه تعبر عن كل هذا :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسى
مستطار اذا البواخر رنت
أول الليل أو عوت بعد جرس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيل
ماله مولعا بمنع وحبس
أحرام على من تحقيق بلابله عدم الدو
ح حلال للطير من كل جنس
نفسى مرجل وقلبي شرع
بهما فى الدموع سبرى وأرسى
وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى
شخصه ساعة ولم يخل حسى

كل شىء يثير أشجانه ، وكل شىء يذكره بوطنه وبغربته .
حتى نونية « ابن زيدون » ، يجد فيها صورة من آلامه ، فيفيض أساه ، فالشاعر الاندلسى كان بعيدا عن قرطبة مسقط رأسه وملعب

صباه ، وقد خلف فيها صاحبته الاميرة الشاعرة الظريفة ولادة بنت المستكفي ، وترك هناك مجده السياسي العريض وقلبه الجريح ، وهو بعيد عن وطنه مثل ابن زيدون ، حيث خلف هناك أمه وأحبابه . « يانائح الطلح أشباه عوادينا » ، نعم أيها الطائر الجريح كلانا عبثت به الايام . انها صورة قديمة كان يقرأها في شعر جرير وفي شعر أبي فراس الحمداني ، وما كان يحسب انها ستصبح جديدة وانه سيقف داخل نفس الاطار . لقد ذهب خياله الى وادي الطلح باشبيلية وهو مازال بعد في برشلونة لم يبرحها ، انه على أية حال يفكر في أسبانيا أقل مما يفكر في مصر . وما أكثر التفاته الى مصر والى البلاد الاسلامية . ان أيام المسلمين في تلك الديار أصبحت حلما من الاحلام ومرتعا للذكرى ، وآثارا تبعث في النفس الاسى ، واذا ما امتد ببصره الى الشرق ، رأى ما يزيده احساسا بهذا الاسى . أفلا يستطيع أن يخلد ذكر البطولة الاسلامية ، ويعرض على أفئدة المسلمين صوراً من مجد الاجداد ، عل فيها لهم العزاء عن الحاضر ، والامل فى المستقبل ؟ . . انه فى الواقع يتعزى عن حاضره ، وينظر بعين الأمل الى غده . وهكذا كانت ارجوزة « رقم الحلل فى نظم الدول » التى كتبها الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، هادية له فى مسيره خلال الارجوزة الطويلة التى نظمها ، وخرجت فى أكثر من مائة صفحة وأسمائها « دول العرب وعظماء الاسلام » .

ومرت ثلاث سنوات كأنها الدهر ، وهو فى المنفى ، ثم أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى نوفمبر عام ١٩١٨ . فأى سعادة غامرة هذه التى ازاحت عن صدره كل الأشجان وضممت كل الجراح . لقد غفر للعالم كله ذنوبها . انه شديد اللفتة الى العودة . . لا يدري أى هوى الأمين يدفعه ، الوطن والوالدة . ولكن السلطات فى مصر لم تسمح له بعد بالعودة ، وان كانت القيود المالية قد ازيلت تماما . وانطفأت البسمة على شفثيه ، ان أمه المريضة التى عاشت

على أمل انتهاء الحرب ليعود اليها ولدها ، لم تقو على احتمال فرحتها الكبرى ، فحمت وماتت قبل ان تملأ عينها برؤياه . وهزته الصدمة هزا عنيفا ، ثم أجهش بالبكاء حتى جفت مآقيه . وأحس بالشبه الكبير بين حاله وحال المتنبي يوم خلف في الكوفة جده عجوزا يئست من حفيدها لطول غيبته فلما هم بالعودة كان فرحها أكبر من أن تحتمله أعصابها الخوارة فحمت وماتت .

ماله وللبقاء في « برشلونة » الآن ؟ ان التجوال خير له من الانتظار والترقب على أمل السماح له بالعودة . فليحزم حقائبه ثم يرحل الى «جزر البليار» فهي على بعد ليلة من مدينته . أما روادها فأكثرهم من الفنانين لمناظرها الطبيعية الساحرة وجوها الصحو . لقد كانت تلك الجزيرة مسرحا لحب الكاتبة الفرنسية «جورج صاند» والموسيقيار البولوني «شوبان» . وهكذا ذهب الى الجزيرة مصطحبا صديقه الطبيب النمساوي فكانت فترة استجمام مسحت دموعه ووارت أحزانه .

وانطلق الى «مدريد» العاصمة وهي أكثر المدن التي شاهدها ارستقراطية فبينما كانت برشلونة مجردة كلها مصانع ومعامل كانت مدريد تحيا عالية على سائر المدن كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة . وفي «مدريد» متاحف ثمينة ، أهمها « البرادو » الذي يضم صورا زيتية رائعة للمصورين الاسبان المشهورين وللمصورين الهولنديين النابغين . وهناك قضي مع أبنائه وقتا ممتعا ، رأوا فيه أحفل متاحف أوروبا بلا نزاع . ولكن أروع ما شاهدهوه في « مدريد » هو قصر الاسكوريال ، الذي شيده فيليب الثاني واستغرق بناؤه أعواما طويلة . وبه سرداب يضم رفات ملوك أسبانيا ، وقد وضعت في توأبيت من المرمر ، وللاسكوريال مكتبة عظيمة ، تحوى بعض

المخطوطات العربية ، التي أثارَت ذكرياتهم وأثرت في نفوسهم
وعجلت برحيلهم الى أرض الاندلس (١) .

كان السفر سريعا ، حتى ان قطار الليل لم يسمح للمسافرين
برؤية المدن التي يمرون بها ، فكان مروره خاطفا بطليطلة وليس في
ذاكرته منها غير الجسر البالى القائم على نهر «تاجه» المحيط بالمدينة
كالسوار ، مع ان فيها من الآثار العربية بابا قديما من أبواب المدينة
يسمونه (باب الشمس) ، والى جانبه أثر عربى آخر ، لايزال يناضل
الدمار ويستعصى على الفناء ، وهو مسجد صغير يحمل الى اليوم
اسمه العربى يكتب El-Mezquita ، وعلى جوانب من أقواسه تلك
الكلمات التى تمثل شعار أجدادنا «لا غالب الا الله» بلونها الاحمر
القاتم كما تركوها . وطليطلة اليوم مدينة صغيرة وأهاليها لايزيدون
على ثلاثين ألفا (٢) . ولو أن الشاعر طاف بأحياء المدينة القديمة ،
لمرت أمام عينيه مواكب التاريخ ، تحدها ذكريات المجد العربى .
فقد كانت أيام الحكم العربى تتسع لربع مليون من المسلمين « بها
بساتين محدقة ، وانهار مخترقة ، ورياض وجنان وفواكه حسان ،
ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بديعة وقلع منيعة» كما
يروى المقرئ فى نفخ الطيب . غير أن قطار الليل لم يكن يهتم بشيء
من ذلك ، فأمامه رحلة طويلة تمتد اربعمئة وخمسين كيلومترا ،
مسافة ما بين مدريد وقرطبة ، يطوى فيها السهول الخضر والجبال
الصلدة قبل أن يصل الى عاصمة الامويين .

وعندما وصل الى « قرطبة » فى ربيع عام ١٩١٩ ، وضع
أقدامه لأول مرة على أرض الاندلس . وكان يرسم لها فى مخيلته
صورة زاهية جمع خطوطها من كتاب نفخ الطيب الذى حمله معه من

(١) أبى شوقى ٥٦ .

(٢) اندلسيات شوقى ٣٢ وما بعدها .

مصر ٠٠ « هي أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندى شبيهه فى كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق» (١) ولكن ياخيبة الامل ، انها قرية كبيرة ، ضيقة الطرقات لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفا . رب أهذه قرطبة التى كانت عروس الاندلس فى العهد العربى الزاخر ؟ أهذه حاضرة الاسلام التى كانت تضم مئات المساجد والمدارس ، وقد بلغ عدد سكانها اذ ذاك المليون ؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التى كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء العالم ؟ كل شىء ضاع واندر ، ولم يبق منه سوى المسجد بروعة عمدته ورشاققتها . وتفجرت أحاسيسه كلها لحنا حزينا يرثى الماضى ويهيم فى اوديته العبقريّة ثم يصحو على واقعه المر فيردد :

قرية لا تعد فى الأرض كانت
تمسك الأرض أن تميد وترسى
ركب الدهر خاطرى فى ثراها
مرقأتى ذلك يوم الحمى بعد حدس
سنة من كرى وطيف أمان
وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من أنيس
واذا القوم ما لهم من محس

ثم يطوف فى أرجاء المسجد حتى يبلغ المحراب وهناك يبحث عن منبر المسجد فلا يجده ، لقد اختفى منذ العصور الوسطى ، ولكنه يستطيع أن يجده فى كتب التاريخ وان يصوره فى شعره ، ويبحث عن مصحف عثمان فلا يجده أيضا ، لأن الموحدين حملوه معهم الى

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٨٠ .

مراكش منذ القرن السادس . وهذه هي المرة الاولى التي تستطيع
فيها الاندلس زحزحة صورة مصر قليلا عن خاطره ، وأن تبرز على
المسرح . أتراه منعظا جديدا عميق الدلالة في شخصيته يؤكد
بروز الفكرة العربية ؟

ولكن هل أنساه التجوال نفسه ، وهل شغل بالآثار العربية
عن التفكير في أشجانه ؟ ان كل شيء حوله يرده الى واقعه ، فالآثار
العربية غريبة غربته ، نالت منها الأيام كما نالت منه ، وهكذا يرتفع
من جديد أنين الناي ، حين يتذكر «عبد الرحمن الداخل» فهو شاعر
مثله ، وهو غريب كثير الحنين الى المشرق ، نفس الموقف ونفس
الاحاسيس ، فيهتف في موشحة « صقر قريش » :

ناح اذ جفناى فى أسر النجوم
رسفا فى السهد والدمع طليق
أيها الصارخ من بحر الهموم
ما لي عسى يغنى غريق عن غريق
ان هذا السهم لى منه كلوم
كلنا نازح أيك وفريق
قلب الدنيا تجدها قسما
صرفت من أنعم أو أبؤس
وانظر الناس تجد من سلما
من سهام الدهر شجته القسى

وغادر قرطبه الى «اشبيلية» ، انها أكبر مدن الاندلس دون
شك ، ومن أجمل مدنه أيضا ذات صبغة شرقية فى بيوتها وطابعها
العام . وشوارعها مغطاة بالخيام كى تحول دون حرارة الشمس فى
أيام الصيف . والعجب الذى يشهده السائح هناك هو فى هذين

الاثرين العربيين العجيبين الباقيين الصامدين في وجه الفناء، وأولهما القصر وثانيهما الجيرالدا (البرج الدوار) ، اذ ليس في اشبيليه ما يثير العجب غيرهما اللهم الا المنتزه الممتد على ضفاف النهر الشهير (الوادي الكبير) فكثيرا ما ذهب اليه شوقي مصطحبا أسرته في أوقات الاصيل كما اصطحبها الى حفلات مصارعة الثيران حيث تذهب سيدات اشبيليه وهن مرتديات ثيابهن الوطنية ذات الالوان الزاهية ولكنه لم يكن يميل بطبيعته الرقيقة الى مشاهدة هذه الحفلات التي تصرع فيها الثيران بعد عذاب طويل .

أما الجيرالدا فهي منارة المسجد الجامع ، وقد عدم الاسبان المسجد ، وأقاموا مكانه كاتدرائية ضخمة ، ولكنهم تركوا المنارة العظيمة قائمة بجانبها ، فهي اعجوبة في الفن الاسلامي ، ترتفع أكثر من تسعين مترا ، وليس لها درج وانما يصعد الى رأسها سيرا في طريق منحدره ملتفة وفي استطاعة الفارس أن يصعد بفرسه الى قمته . هذه المنارة العربية الشامخة الرأس لا تزال الى اليوم مصدر وحى والهام لكثير من أدباء الاسبان وشعرائهم ومن أعلاها تبدو المدينة لعين الناظر بلدة كبيرة نظيفة بمبانيها البيض والاحواض التي تتوسط افنية الدور لترطيب الجو ، مثل دور دمشق العربية ثم السقوف القرميدية الحمر ، وأروع ما يسحر العين منظر « القصر » العربي ومن ورائه يمتد مثلث أخضر هو حدائق القصر الكبرى ، ومن خلفها نهر الوادي الكبير يحف بها كالهلال . وفي هذا القصر قضى شوقي فترات طويلة يطوف في ابهائه ويرى القسم الذي أضافه الاسبان اليه فشوهوا جماله الخالص . كان يبحث هناك عن الملك الشاعر « المعتمد بن عباد » وزوجه الشاعرة الجميلة « الرميكية » وابنتها « بشينة » وجدتها العبادية ، ولكنه لم يجد سوى أطيافهم ، ابطال مسرحيته «أميرة الاندلس» تعبق بها أجواء القصر الخالي وتموج بها ظلال الحدائق العربية وراء القصر الحزين .

وكانت آخر مدينة زارها هي غرناطة التي خرج منها العرب - وكانت آخر معاقلمهم - بتسليم أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر ، الى فرديناند وايزابيلا مفاتيحها ، وخلفوا في هذه المدينة أضخم أثر عربي تزهو اليوم به الاندلس ، وتهفو اليه قلوب السياح من كل مكان في الارض ليروا احدى معجزات الانسانية ومفخرة الحضارة العربية والفن الاسلامي في أسبانيا . انه قصر الحمراء ، حصن غرناطة ودار بني الأحمر ولا يزال الى اليوم كما تركه بناته اعجوبة وفتنه . ويقع القصر فوق آكام عالية تطل على المدينة تحيط به جنات من حدائق القصر ويشرف على هذه الاكام جبل « شيرا نيفادا » الذي لا تفارقه الثلوج صيفا وشتاء . وقبل أن يصل شوقي الى القصر سعد متمهلا ، ذلك الطريق المظلل بأشجار كثيفة لان السنين الخمسين التي بدأ ينوء بها تدفعه دفعا الى الصعود المتمهل ، ولكن ذلك أتاح له أن يتوقف عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسه تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس . انها فيما يقال رمز للعقيدة الاسلامية بأركانها الخمسة . وعندما اسلم نفسه الى أحد الادلة الاسبان المتسكعين حول الباب وسأله عن تلك اليد المنقوشة ، سمع فيضيا من الاساطير . ثم اجتاز باب العدل وسار في طريق ضيق متعرج بين التلال حتى بلغ ساحة الآبار حيث صهاريج المياه محفورة في الصخر الصلد لتزويد القلعة بالماء وفي آخر الساحة رأى قصر شارل الخامس الذي بدأه ولم يتمه فظل جدرانا قائمة ، تخطاها ليجد نفسه داخل قصر الحمراء . وهو آية فى الروعة بحجراته الرحبة ونقوشه الدقيقة وفسيفسائه الملون ، وأجملها تلك الحجرة التي كان ملوك بني الأحمر يقابلون فيها الرسل والسفراء فهي مفروشة بالرخام مزينة بأبدع الخطوط ، ومن نوافذها يطل الناظر على حى «البيازين» من ثلاث جهات والجهة الرابعة تفضى الى قاعة البركة . ويصل الشاعر الى ساحة السباع ويقف أمام

الحوض المرمرى الذى تحيط به سبعة أسود توليه ظهرها والماء يتدفق من أفواهما • وينتهى تجواله ، ثم يعود الى فندق « واشنتون ايرفنج » حيث يقيم مع أسرته فى قلب الغابة المحيطة بالحمرى فيتوقف طويلا أمام اللوحة الزيتية الكبيرة المعلقة فى بهو الفندق التى تمثل الملك العربى أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة وهو يسلم مفاتيح المدينة الى ملوك الاسبان • ويتمثله عندما اجهش بالبكاء وهو يغادر الاندلس فقالت له أمه عائشة التى كانت فى صحبته : « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذى لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » • فيتأثر تأثرا بالغا ، ثم يردد هامسا :

خرج القوم فى كتائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم رمدى

العودة

كان من عادة السلطان حسين كامل ان يدعو من حين الى حين بعض الشخصيات لتناول الغداء بقصر عابدين . وفى أواخر سبتمبر عام ١٩١٩ كان بين المدعوين أحمد زكى باشا . وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام ، دعاهم الى تناول القهوة بالبهو الكبير، وجلس السلطان والى جواره أحمد زكى باشا ومحمود شكرى باشا . ودار الحديث فى هذه الجلسة عن النهضة العلمية والتطور فى الحركة الأدبية ورقى الصحافة والأغاني القومية تطرق الى الشاعر اسماعيل صبرى ومستواه الفنى الرفيع الذى جعله شيخ الشعراء ، وهنا التفت السلطان الى أحمد زكى باشا متسائلا :

– كيف تترجمون فى العربية كلمة *Mentalite*

– هذه الصيغة استحدثت لمعنى خاص يقاربه فى العربية

قولنا « ذهنية » و « عقلية » .

– أ يوجد بين العرب الآن من فى قدرته ان يماشى شعراء

الافرنج ، مع هذه العقلية الجديدة والذهنية الحديثة ؟

– ان هذه المزية تفرقت فى كثير من شعراء العصر ، ولكنها

اجتمعت كلها فى شاعر واحد .

– ومن يكون ؟

— انه أحمد شوقي •

وهنا أشار له محمود شكري باشا فأحس انه يشجعه على المضي في الحديث ، فانترسل قائلاً : ان شوقي ممن تزدان بهم الدول ، ولو كان في زمن الخلفاء لتخاطفته دمشق وبغداد وقرطبه • لقد أفاض على العروبة من نقاته ومنح الشعر والادب من نفحاته ، حسنات باقية ، وآثارا خالدة • وآنس من السلطان ما يشعر بالرضى فقد التزم الاطراق والصمت فتمادى في حديثه موجهها كلامه اليه هذه المرة في صيغة تساؤل :

— أيصح أن تبقى مصر محرومة من بلبلها الغريد ، وان يرفرف هذا الطائر الغريد بجناحيه على قرطبة وطليلة وعلى اشبيلية وغرناطة بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ؟ ان الذي نرمله هو أن تعيد الى القاهرة رونقها المجتمع في أثواب شوقي •

ووقف السلطان قوف الحاضرون ، ثم بدأوا في الانصراف • وهنا أسرع محمود شكري باشا مهرولاً وراء أحمد زكي ، وأخذ يعنفه على اندفاعه في هذا الحديث عن شوقي فاعتذر بأن السلطان كان مصغياً اليه ، وانه تصور اشارته تشجيعاً له ، ولم يخطر على باله أن يتخرج من الحديث عن بلبل مصر ، وما فعله ليس سوى نصيح السلطان بما ينبغي أن يكون • وكان السلطان فعلاً قد اقتنع بما سمع فطلب من رئيس الوزراء أن يعمل على عودة شوقي من المنفى (١) •

بلغت شوقي أنباء السماح له بالعودة الى مصر • فلم يكن

(١) ابولو ديسمبر ١٩٢٢ ص ٢٨٦/٢٨٨ •

هناك من هو أشد منه طربا في ذلك اليوم . العودة . . انها حلیم
جميل يتحقق ، فقد آن للغريب ان يرى حماه وان يؤوب من تجواله
ويلقى عصا الشريد ويحتضن الدنيا كلها ويغفر لها كل ذنوبها . انه
لم يعد يستطيع الانتظار لحظة واحدة وأول سفينة تغادر أوروبا الى
مصر سوف تبحر من « البندقية » فليرحل اذن « الى جنوا » بحرا ،
ثم يركب القطار الى « البندقية » ومن ثم يستقل الباخرة في طريقه
الى ثغر الاسكندرية .

لا يعرف الشوق الا من يكابده ، ان حنينه اندفاق الى تقبيل
ثرى مصر أعنف من حنين محب مجنون بحبيبه . ما أعذب ان يتحقق
الامل بعد اليأس ، وان يرتقى الابن في حضن أمه بعد فراق ولوعة
طالت بهما الايام . وعندما اقتربت السفينة من الميناء ولاحت أنواره
من بعيد وأحس بنسمات الثغر تداعبه طفرت الدموع من عينيه ،
وهتف بأبيات الحنين كزفرة طويلة لا نهاية لها :

ويا وطني لقيتاك بعد يأسى كأنى قد لقيت بك الشبابة
ولو انى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا
أدير اليك قبل البيت وجهى اذا فهت الشهادة والمتابا

ووصل القاهرة نبأ عودة شوقى فاستعدت جماهير من الطلبة
وغيرها للاحتفاء به انهم جماهير ثورة ١٩١٩ التى كانت قد اندلعت
منذ شهور واشتركت فيها كل طوائف الشعب ، وكان للطلبة
فضل المبادرة ثم انضم اليهم العمال والفلاحون والتجار والموظفون
والنساء ، وهى قفزة كبرى فى تاريخ الحركة الوطنية اذا ما قورنت
بأيام مصطفى كامل فقد كانت فى أيامه حركة مثقفين أساسا . أما
اليوم فقيادة الثورة سياسيا فى يد الوفد ، ولكنه تردد فكانت
التحركات الثورية الفعلية فى يد الطلبة والعمال وصغار التجار

والمحامين ومتوسطى الملاك فى الريف ، واستمرت تشتعل ثم تهدأ لتنفجر من جديد . واستمع شوقى فى الاسكندرية الى أناشيدهم ، أناشيد البطولة والفداء « لا سجون ومدافع رشاشة ، ولا خفنا عذاب فى جهاد باهر ، نصاب برصاص نربط شاشه ، عالجرح ونرجع نتظاهر » ، فأحس بدماء الشباب حارة تسرى فى جسده وتخلقه خلقا جديدا .

احتشدت تلك الجماهير على أفريز المحطة فى أمسية شديدة البرودة من أمسيات الشتاء فى انتظار القطار الذى يقل شاعر مصر الكبير . . . وجاء رجل ضخيم يشق الطريق بعناء ، كان حافظ ابراهيم وأهاب الرجل الضخم بالناس ان تحمله حتى يستشرف على هذا الزحام ليطلع القادم . ومرت لحظات وصل بعدها القطار ، ونزل منه رجل قصير يمسك بنيقة معطفه بيده خشية البرد ، وهتفت الآلاف بحياة شوقى فى حماسة بالغة ، ثم حملوه على الأعناق ، وحياه حافظ بأبياته التى يقول فيها :

**الحمد لله الذى قد رده من بعد غربته الى أوطانه،
فتنظروا آياته وتسمعوا قد قام بلبلكم على أغصانه**

ثم خرجت الصحف ترحب بمقدمه بعد طول غياب . قالت جريدة الثمرات : « أهلا بسيد الأدباء ، أهلا بأمر الشعراء ، أهلا بأحمد شوقى » .

« غبت عنا فغابت معك شمس الفضل واحتجب بدر النبل وأظلمت سماء العرفان وأصابنا الوقر فى الآذان ، بصير أولئك المتشاعرين الذين يزوجون بأنفسهم فى غمار الشعراء ، وما هم الا جنادب تتنازى من حولنا ، ووضفادع تتجاوب بيننا . فأفسدوا علينا القول حتى أحمدنا الصمم ، وآثرنا العدم . فاذا رحبنا بك ،

وأفسحنا من صدورنا لاستقبالك ، وفتحنا قلوبنا لانزالك خير منزل ، فانما نرحب فيك بشاعر مصر ، المخلد لآثارها على وجه الدهر ، ونستقبل فيك شاعرا جاد الزمان به على لغة الكتاب الكريم ، بعد أن ضن بمثله منذ عدة أجيال . فاصدع بوحى الشعر اليك ، واشع فى الناس آياتك البينات ، وافض عليهم من معجزاتك الخالدات ، وجدد للعربية عهدا ، واحى الآداب بعد مواتها ، وقل نسمع شدوك ، ونقف عند حكمك » (١)

وانفعل انفعالا شديدا ، وهو يسمع ويرى هذا الفيض من المشاعر ، فأحس انه يخلق من جديد ، كما خلق هذا الشعب من جديد ، وانه يستقبل مصر الثورة ، التى أفاقت من ذهول الصدمة ، فليخفض بصره اليها ، وليحتضن قضاياها ، ذلك دين فى عنقه ، فلا أمير الا الشعب ، والا هذه القلوب الشابة ، التى يتطلع اليها بعين المستقبل فىرى وجهها فتيا . لم يقو الزمن على ان يعبث به .

مركز تحقيقات كميوتور علوم إسلامي

(١) العدد الصادر فى ١٤ مارس سنة ١٩٢١ .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامى

الباب الرابع

انطلاقه جديده

أوطان

كل شيء أخذ في التبدل من حوله ، ولكن الانتفاضة القومية
هى أشد الظواهر عمقا ووضوحا ، ان الدائرة تنداع أمام عينيه ،
حتى لا يعود يرى الا الجماهير فى حركتها ونضالها . انها فى حاجة
الى الصوت القوى الذى ينطق باسمها ويعبر عن قضاياها ، ويصور
آمالها ، وهو صاحب هذا الصوت ، صوت النفير المدوى الغلاب .

وهكذا ألقى بالناى الحزين بعيدا . ليته شهد الثورة
واشتعالها ، اذن لصورها كما لم يصورها أحد من قبل ، ولنفخ
فيها من روحه الشابه ، وكلماته النارية :

يوم البطولة لو شهدت نهاره
غبت حقيقة وفات جمالها
سالت من الغاب الشبول غلابها
يوم النضال كستك لون جمالها
لنظمت للأجيال ما لم ينظم
باع الخيال العبرى الملهم
لبن اللبابة وهاج عرق الضيغم
حرية صبغت أديمك بالادم

لقد أتاح له النفى أن يعود الى نفسه ، فتغيم رؤيا الفرد أمام
ناظريه حتى تتلاشى ، انه تحول فى مفهوم البطل فالشعب هو
صانع التاريخ ، هو البطل الحقيقى الخالد ، واذا كان التاريخ الماضى
هو تاريخ أفراد ، فالتاريخ الحاضر تاريخ شعوب . ان احرار التفكير
الذين تعالوا على مظالم المستبد وآثروا الهلاك ، واستعذبوا الموت على

الخصوع ، هم فرسان الحقيقة التي غابت عنه حيناً ، ولكنه اليوم على يقين منها .

هذا التحول في التفكير هو قمة الايمان الذي لم يتزعزع بالشعب بالدستور وبزوال حكم الفرد . انه لن يكف منذ اليوم عن الدعوة الى الدستور والمطالبة به حتى يبح صوته ، وأمامه الصحف التي تتسابق على نشر أناشيده ، فهو يحمل أمانة الكلمة ، ويدرك قيمتها حين نفى بسببها ، وحين قدستها الجماهير بعد عودته . وتوالي القصائد ، وتطلع الصحف مشيدة بشعره ، أكتوبر عام ١٩٢١ :

نطالب بالحق في أمة جرى دمها دونه وانتشر
ولم تفتخر بأساطيلها ولكن بدستورها تفتخر
مارس عام ١٩٢٢ :

ان سرك الملك تبنيه على أسس
فاستنهض البانين العلم والأدب
وارفع له من جبال الحق قاعدة
ومد من سبب الشورى له سببها

يناير عام ١٩٢٣ :

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

لقد قال عبد العزيز فهمي في خطاب مفتوح له ، وموجه الى رئيس الوزراء يوم ١٥ ابريل عام ١٩٢٢ : « ان سيادة الامة وكونها مصدر كل سلطة ، هي أهم ما تسعى الشعوب لحمل أمرائها على الاقرار به لها . وهي التي تقوم الثورات وتثل العروش لاستنقاذها من براثن هؤلاء الأمراء . . ان السيادة آتية لمصر من تحت أنياب الانجليز بعد الجهود والتصميمات الكبرى التي قام بها المصريون في وجه الانجليز . ثم يأتي أناس من المصريين أنفسهم ، فيهبونها غنيمة باردة لأمرء البيت المالك . فالشعب المصرى سيد صاحب حق أصيل في الدستور ، ومتعاقد أصيل فيه ، ومن ثم فلا يملك أحد كائنا من كان ، اصدار الدستور بدون اشتراك هذا الشعب رجالا ونساء ، كهولا وفتيانا » . (١)

غير أن الدستور وضع وسعد زغلول معتقل في « سيشل » مع ذلك فلم يكن « فؤاد » راضيا عنه ، كان ناقما على ما أسماه انتقاصا لسلطة الملك . وكم حبك من مؤامرات ، ولكن الضغط الشعبى ، أرغمه على اقراره . وعلى الرغم من ان الشعب لم يؤخذ رأيه فيه بطريقة جدية ، فقد تمسك به وأصر عليه ، وأصبحت السراى ومحترفو السياسة من الاقطاعيين والراسماليين من أعدى أعدائه، ولم يتأخروا عن محاولات تعطيله في أكثر من مناسبة .

(١) تطور الحركة الوطنية لشهدى عطية ص ٥٥

وافتح البرلمان وسط هذه التيارات في ١٥ مارس عام ١٩٢٤،
انه ثمرة كفاح مر طويل ، منذ الثورة العراقية ، الى انبعث الحركة
الوطنية على يد مصطفى كامل صاحب الكلمة المشهورة « أين ذلك
الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ؟ أين مجلس النواب
المصرى الذى يقف فى وجهه كل طامع ؟ » (١) الى ثورة سنة
١٩١٩ :

وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
وفيه من التل المضرج حائط

فليس هناك الا الحرص الشديد عليه ، حرص الضنين ، والا
التنبيه الدائم ، تنبه النواب الى رسالتهم . . . وتتابع القصائد ،
كانها دقات ناقوس لا يهدأ حتى يصحو كل نائم وينتبه كل غافل
ويتجمع كل شارد ويتحرك كل ساكن :

دار النيابة هيئت درجاتها
والزائرون اذ اغير على الشرى
فليرق فى الدرج النواب والنرا
يمشون فى ذهب القيود تبخترا
الصارخون اذا أسيء الى الحمى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى

ان دوامة الاحداث تستغرقه تماما فلا يفيق منها أبدا ، وليته
لا يفيق فهى دليل حيوية ، وعجب لنفسه كيف كان يتصور
دوره ، هو دور صانع النغم وصاحب الناي ، أليس فى زئير الجموع
لحن أحلى من كل الأنغام ؟

ثم أليس فى حشد الجموع من أجل الحفاظ على مكاسبها رسالة
مقدسة ؟ ينبغى اذن أن تبقى العيون يقظى كل العيون ، ولكن
التطاحن من أجل التسلط والسيطرة اشتغل أواره منذ

(١) اللواء ٢٨ مايو سنة ١٩٠٢

سنة ١٩٢٤ وأصبح تراشقا بالتهم منذ انتخابات سنة ١٩٢٥ التي عمل زيور على تزويرها بكل جهده ورغم ذلك أسقطه الشعب وجاء الوفد وبرلمانه لمدة تسع ساعات حل بعدها البرلمان .

وها هو ذا الصراع يندلع عنيفا بين الوفد وبين الدستوريين من أجل التهافت على الحكم ، لا من أجل الصالح العام .

هل ينبغي له اذن وهو شاعر مصر ان يكون شاعر حزب من الأحزاب ؟ انه يحس بالألم يجتاحه ويتحرك لسانه بالعذاب الذى تتجرعه آلامه من جراء هذا الانقسام ، وفى ذكرى من أعز ذكرياتها، ذكرى مصطفى كامل ، الذى احترق شابا ليضئ للناس طريق الجهاد :

الام الخلف بينكم الاما
شبيبتم بينكم فى القطر نارا
وكانت مصر أول من أصبتم
ولينا الأمر حزبا بعد حزب
شهيد الحق قم تره يتيما

وهذى الضجة الكبرى علما ؟
على محتله كانت سالما
فلم تحص الجراح ولا الكلاما
فلم نك مصلحين ولا كراما
بأرض ضيقت فيها اليتامى

ويكر عليهم ثانية فى نفس العام ، ويقراً الناس شعره ، ويزداد توزيع الصحيفة التى تنشر قصيدته ، ويهز الناس رؤوسهم أسفا على هذه الفرقة ، ثم يزداد الأسف ويثور الغضب ، ويضغط الشعب بكل قواه ، ويتحدثون فى الشوارع وفى المقهى وفى البيت وفى النادى وفى كل مكان ، ويحسون ان الالتمام خطوة مرحلية لا بد منها لانقاذ الدستور ، ولكن الأمل فى الجيل الجديد الذى ازداد وعيا ، وصقلته التجارب ، وينعقد المؤتمر السياسى الذى اجتمعت فيه كلمة الأحزاب على انقاذ الدستور فى ١٩ فبراير سنة ١٩٢٦ ، وتصافح المتلاحون واتحدت كلمتهم - الى حين - وتوحدت غايتهم ، وتناقل المجتمعون عبارات العتاب ، ومحا

الود ضغائن الصدور ، وانفعلت الجماهير ، وانتشت بالفرحة ،
وهنا الناس بعضهم بعضا ، واستبشروا بالغد ، وسجل شاعر
الشعب بشراه مرة ومرة ومرات (١)

التاقت الأحزاب بعد تصدع
سحبت على الأحقاد أذيال الهوى
الله ألف للبلاد صدورها
انتم بنو اليوم العصيب نشأتم
صوت الشعوب من الزئير مجمعا

وتصافت الاقلام بعد تلاح
ومشى على الضغن الوداد الماحي
من كل داهية وكل صراع
في قصف أنواء وعصف رياح
فإذا تفرق كان بعض نباح

ولقد أحس مخلصا ، أنه عاشق الحرية ، حرية سياسة أكثر
من التفكير فيها والدوران حولها ليله ونهاره ، وحرية اقتصادية ،
تهدف الى تحرير الاقتصاد المصرى من قبضة السيطرة الاجنبية ،
وتشجيع الصناعات الوطنية ، وحرية ثقافية عن طريق نشر العلم
على كل المستويات ، وهكذا ينبغي أن تكون عملية البناء فى كل
اتجاه . انه يسمع الشباب يرددون أبياته :

العصر حر والشعوب طليقة
أين التجارة وهى مضممار الغنى
ملك من الأخلاق كان بناؤه
ما لم يجزها الجهل فى ارسانه
أين الصناعة وهى وجه عنانه
من نحت أو لكم ومن صوانه

كما يسمعون فى كل حقل ، ووسط كل طرب مهما بلغ مداه ،
يحسون بشيء من الحزن الشاحب . ولكنه الحزن المصفى للملكات
والأرواح ، الحزن الدافع لا المعوق ، يحسون أن الفرحة لن تكتمل
ما لم تتم الفرحة الكبرى ، انه يسمعون يرددون بيته الذى جاب
البلاد ، وانشدته الزارع فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والتاجر
فى متجره ، ورجل الشارع فى أطماره ، يللمها ولكنه يتغنى :

والله مادون الجلاء ويومه
يوم تسميه الكنانة عيدا

(١) قال قصيدتين أخريين فى نفس العام ، أولاهما فى ذكرى مصطفى كامل ،
والثانية فى رثائه لعبد الحميد أبى هيف .

فيحس بسعادة غامرة ، ويدرك ان هذا الشعب قد وصل الى
النضج الكافي وان شخصيته قد بدأت تكتمل ، ولا سبيل الى تزييف
الرؤى أمامه ، أو الحجر عليه ، أو كبح جماح انطلاقته لتجميده ،
فهل أدى الرسالة ؟

لقد كان قبل النفي شاعر الخلافة الدينية ، ولكنه لم يكن
شاعر الخليفة ، الم يقل له :

زهدت الذي في راحتك وشاقتي

جوائز عند الله مبتغيات

انه يحس برسالته احساسا قويا من ذلك العهد ، ولكن
الخليفة عزل والخلافة نفسها ألغيت ، وفي الاندلس كانت عظمة
ما تركه العرب تنبىء عن أمجادهم القاهرة ، وتلك كانت بداية
التحول ، بداية الغذاء بالروح العربية الجديدة ، فتحول شاعر
العثمانية الى شاعر العروبة ، كما تحول شاعر الخلافة الدينية
الى شاعر الوطنية المصرية .

كان يهاجم الحسين الثائر العربي ضد الدولة الثمانية ،
ولا يرى فيه الا عاجزا يريد الخلافة لنفسه ، عاقا خرج على ظل الله
في الأرض ، أما اليوم ، فقد أدرك أن الانطلاقة العربية كانت بداية
وعى جديد ، ويخطيء من يظن ان الثورة قامت على أكتاف الحسين
وآله ، فالحقيقة انها كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة
العثمانية وما من عربي استطاع أن يؤازرها أو يلحق بها ، الا أقدم
على ذلك عن طيب خاطر ان الذين لاموا الحسين قد نظروا الى المسألة
نظرة اسلامية عاطفية ، مع ان تركيا كانت ستلغى الخلافة بعد
سنوات . وهكذا أصبحت القومية العربية عاطفة جامحة في
الصدور والقلوب ، واختمرت هذه الحقيقة التي كانت متوارية خلف
حجاب كثيف من التيارات السياسية فتوالت الثورات في البلاد

العربية ، ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وثورة ١٩٢٠ فى العراق ، وثورة ١٩٢٥ فى الشام ، وربما لم تنجح هذه الثورات نجاحا مطلقا ، ولكنها أكدت قدرة العربى على مجابهة الاستعمار .

ويفتح ذراعيه ليحتضن القضية العربية ، فالوطن العربى جسم واحد ، وان فرق الاستعمار أشلاءه ، ولن تمر مناسبة دون أن يسلط الأضواء على هذه الوحدة النفسية . الساسة مشغولون بالاسلاب ، ولكن الفن يستطيع أن يلعب دوره وان يقوم بدور الحادى - وذلك أضعف الايمان - فى ريادة الجماهير وطرد اغراء النوم عن عيونهم .

يا نجم سوريا ولست بأول
أطلع على يمن بيمنك فى غد
سترى الأديار على اختلاف ربوعها
نطق البعير بها وعى الحادى

وتتوالى المكائد ، وتتابع المحاولات الاستعمارية الحبيثة للإيقاع بين الأشقاء . انها قصة الاستعمار الأزلية « فرق تسد » ولكنه لن يقوى لأن وعى الشعوب قد وصل الى درجة النضج وهو يستطيع أن يريق سم الأفعى بكشفه ، وبإثارة عواطف الاخوة :

فمصر الرياض وسودانها
تتمم مصر ينايعة
وأهلوه منذ جرى عذبه
ولكن رءوس لأموالهم
عيون الرياض وخلقجانها
كما تمم العين انسانها
عشيرة مصر وجيرانها
يحرك قرنيه شيطانها

ويتزيبى بزى العصر ، ويتجه الى دفع الجموع من أجل استكمال أسباب القوة ، فالدعاء لا يحقق أملا ولا يجلب الحرية ، ومواقف الاحرار من حوله مصبوغة بالدماء :

بنى سورية اطرحوا الأمانى
وقفتم بين موت أو حياة
وللاوطان فى دم كل حر
ولا يبني الممالك كالضحايا
والحرية الحمراء باب

والقوا عنكم الأحلام ألقوا
فان شئتم نعيم الدهر فاشقوا
يد سلفت ودين مستحق
ولا يدنى الحقوق ولا يحق
بكل يد مفرجة يدق

ويعبر شعره الحدود الاقليمية المصطنعة ، وتحلق جناحاه هنا وهناك ، ويصل صوت البلبل الى كل بيت عربى ، يزغرد تارة ويبيكى تارة أخرى ، انه يعيش أروع أيامه ، ويحقق أحلى أمانيه ، وهل هناك أمنية أعز من أن تغنى الجماهير العربية من المحيط الى الخليج أغانيه أو تهدر بأناشيده ، أو تردد كلما التقت فى مناسبة :

ونحن فى الشرق والفصحى بنورحم
ونحن فى الجرح والآلام اخوان

مركز تحقيقات كميوتور علوم إسلامي

طير الحجال

– هل وصلتك يا « حافظ بك » الدعوة لحضور الحفل النسائي الذى سيقام بمسرح حديقة الأزبكية ؟

– طبعاً ، وقد نظمت الابيات الاولى من القصيدة التى سوف ألقياها . وكما تعودت يا شوقى بك ، تريد ان تعرف ماذا قلت دون ان تقول انت شيئاً ، على أية حال لم أعرض الا لموضوع البر :

أى ذوات الحجال عشتن للبر ودمتن قدوة للرجال قمن علمننا المروءة والعطف على البائسين والسؤال (١)

– الحقيقة انى أتابع نشاط المرأة فى هذه الأيام بشيء من الرضا ومن الاعجاب . فقد تطورت المرأة المصرية كما يتطور كل شيء فى المجتمع منذ نهاية الحرب وقيام ثورة ١٩١٩ .

– ولكن النساء يعلمن موقفك منذ أخرج قاسم أمين رحمه الله كتابه « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ .

– لقد كان قاسم نفسه يعلم أن الناس لن تتقبل آراءه ببساطة وهو يعرض للتقاليد الموروثة بعقلية المثقف ثقافة غربية ، ثم وهو يعرض لرأى الدين فى المرأة ، بينما هو مجرد باحث وليس من رجال الدين . ومع ذلك يجتهد فى هذه القضية الشائكة محاولاً دفع المرأة نفسها الى اتخاذ موقف ، ودفع الرجل الى اعادة التفكير .

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٩٩ .

– رأى قاسم ان الغربيين قد غالوا فى السفور الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعا ، وحرمانها نعمة الحياة . وقد كان رحمه الله على حق حين رأى أن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضائها وما خفى ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل أثناء سيرها ، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك ، لأنه يخفى شخصيتها . والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم بين المرأة وبين ارتقائها وبذلك يحول بالتالى بين الأمة وبين تقدمها .

– يا أخى لقد تدرجت اليابان فى الرقى السريع بينما لم تنل نساؤها شيئا مما يسمى بالحرية الغربية ، والمرأة هناك تنشأ لتكون زوجة واما .

– على أية حال ان قاسما نفسه يقول ان رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه انقلاب فجائى ربما نشأت عنه مفسد كثيرة ولكن قصيده اعداد نفوس البنات زمن الصبا لهذا التغيير .

– لقد كان من الواجب ان يتوقف عند تربية النساء ، كما رأى مصطفى كامل رحمه الله (١) ، فهى دعوة يوافق عليها كل مثقفى الأمة ، اما الحرية للمرأة فلم يكن هناك محل للحديث عنها لأن عملية التطور تسير سيرها المحتوم ، وفرق بين التطور والتطوير القسرى .

– ان قاسما التفت الى ذلك وقارن مقارنة سريعة بين المرأة الغربية التى دخلت الوظائف العامة ، وبين الشرقية التى تستطيع

(١) اللواء ٣١ يناير سنة ١٩٠١ .

متى ترقى أن تخدم بلدها على الأقل عن طريق الجمعيات الخيرية
وما أكثر حاجتنا إليها.

— يا أخى لقد زرت بلادا أوربية كثيرة فوجدت الحرية قد
افسدت على المرأة آدابها ومحت كثيرا من الاخلاق الفاضلة حتى
عمت الشكوى هناك ، وما وافق تلك البلاد غير ما يوافق البلاد
الاسلامية لأن التقاليد مختلفة .

— ولكنك أبدت اعجابك بالمرأة العثمانية التى أسفرت
وخرجت الى الاسواق والى المتنزهات وقلت فى مقالتك النثرية
التي نشرتها فى المؤيد بامضاء « سائح » (٢) يوم اخرج قاسم
كتابه : « ثم كان منى التفات الى النسوة المصليات والآخريات
التاليات فرأيت لهن فى الاسفار جمال الاقمار وجلال الابرار ،
أو هن لحوار العين فى هذه الدار ، قد أخذن ما أمرت به الشريعة
الطاهرة فلم تبد الا وجوه ناضرة الى ربها ناظرة ليس بحسنها
تطريه ولا بلونها تطلية تنبىء عن صحة كاملة وقوة للجسم
شاملة ، فلما فرغن من صلاتهن وانتهين من تلاوتهن ، خفن
للذهاب وابتدرن الابواب ، فرأيت الرجال ينتحون حتى تعبر
النساء وقد ملئوا وقارا كأنهم جند والمرأة بينهم لواء ، فعلمت
حينئذ ان سعة الآداب اغنت المرأة العثمانية عن الحجاب ، وان
اغضاء الرجال قد ناب لها عن النقاب فقلت فى نفسى يا عجباً ،
خرجت من الصدف الجمانة ، الى أصداف من التكريم والصيانة» .

— لا بد انك تحفظ باقى القطعة ، وهأنذا اكملها لك
« سبحانك ربى جعلت مضمار الحجاب فى الاستانة ، منافع فى
مصر الكنانة . . . فطالما جنت فيها الموالد على المساجد ، وضاق

(٢) المؤيد ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٩ « بضعة أيام فى عاصمة الاسلام » .

الزوايا عن الخبايا ، وانقلبت الخلوات فصارت للشهوات ، وعدى الله جهرة في الحضرة ، واصبحت الزيارة حياة مختارة وحلة مستعارة وآفة البيوت ، توهنها كالعنكبوت ، فكم شقاق أوجبت ، وطلاق سببت .

— ولكن ذلك الذي دعا اليه قاسم أمين ، لم يعد شغل الناس بعد الحرب فقد أخذت الأمور تتطور تطورا سريعا حتى أصبحت دعوته وقد استنفدت أغراضها في وقت وجيز ، واندفع الناس الى ما بعدها في سرعة غير منتظرة . فقد خلعت المرأة النقاب ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة ثم لم تلبث أن نبذت المعطف ، وانتشرت العاملات في المتاجر . تتابعت هذه التطورات ولم تدع فرصة للمعارضة ، فقد أعان على اندفاعها جو الثورة التي تلت الحرب وما كان يوحى به من جرأة ومن تمرد على كل قديم . وقد ظهرت طلائع ذلك في مظاهرة النساء سنة ١٩١٩ التي طافت بشوارع القاهرة هاتفة بالحرية في طريقها الى دار المعتمد البريطاني لتقدم اليه احتجاجا مكتوبا على تعسف سلطان الاحتلال وكان عدد المتظاهرات فيها يربو على الثلاثمائة ، وعلى رأسهن صفية زغلول حرم سعد زغلول وهدى شعراوي حرم على شعراوي . وقد قلت في هذا الموقف قصيدتي التي سخرت فيها من سلطات الاحتلال حين تعرضت لهن ، ثم شاركت المرأة منذ ذلك الوقت في القضايا الوطنية وفي مختلف الميادين الاجتماعية . وغفلت عين المعارضين عن هذه الخطوات التي أضفى عليها جو الثورة لونا من القداسة حفظها من ان تمس . فلما تنبه المعارضون وجدوا المرأة ماضية في استئناف الطريق الذي وضعت قدمها على أوله باشتراكها في ثورة ١٩١٩ ، فأخذت تؤسس الجماعات وتقيم الحفلات وترعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوي . وربما جزع بعض المحافظين لما صحب هذه الحركة من ميل

بعضهن الى التبرج أو نزوع الى الانطلاق وراحوا يتابعون في ذهول
تطور الزى . ولكن تيار الحياة كان يكتسح المعارضين اذ يصبحون
وقد احاط بهم ما يكرهون وما يحاربون في أشخاص بناتهم
وزوجاتهم وأخواتهم حتى بدا التناقض واضحا بين ما يقولون
وما يجرى في بيوتهم .

- لقد ذكرنى نقاشنا اليوم بخلافى مع قاسم أمين منذ ربع
قرن . وكنا نحتد احيانا فى النقاش ثم لا نلبث ان نتصافى .

- اترك لم تغير رأيك فى المرأة . ان الذين استمعوا الى
قصيدتك الأخيرة حاروا معك ، فأنت تؤيد ثم تعود فتسحب
تأييدك ، فاذا قلت :

قل للرجال طغى الاسير طير الحجال متى يطير
أوهى جناحيه الحديد د وحز ساقيه الحرير
حرية خاق الأنبي سات لها كما خلق الذكور

صفقت المرأة ، ولكنها لا تلبث فى الأبيات التالية أن تفاجأ ،
فتتهاوى يدها الى جانبها عندما تسمع تسجيلك لازمتها وترددها
فيما تأخذ وما تدع أمام سيل البدع الذى يتدفق فى غير توقف :

فى ذمة الفضلى هدى جيل الى هاد فقير
اقبلن يسألن الحضى اارة ما يفيد وما يضير
ما السبيل بينة ولا كل الهداة بها بصير

واذا سمعن ثناءك وهتافك لقاسم أمين رحمه الله قلن نصير
قوى للمرأة يخلد ذكرى الرائد فى قوله :

يا قاسم أنظر كيف سـ ار الفكر وانتقل الشعور
جابت قضيتك البلا د كأنها مثل يسير

ثم تموت الابتسامة على شفاههن فى اللحظة التالية مباشرة.

حين تقرر خلافاً معه وحيرتك في معرفة حقيقة مقصده وسر
دعوته ، ثم تتركهن حيارى دون ان تريح أحداً في نهاية القصيدة :

لقد اختلفنا والمعاً شر قد يخالفه العشير
في الرأي ثم اهـاب بي وبك المنادم والسـمير
ومحا الرواح الى مفا نى الود ما اقترف البـكـور
فى الرأى تضطفن العقـو ل وليس تضطفن الصـدور

— لقد غيرت رأى فى المرأة التركية ، كما غيرته فى المرأة
المصرية ، أما التركية فقد سارت الى ما يشبه التسيب ، وقد
قرأت فى الصحف تصريحات لفتيات تركيات يفخرن فيها بأنهن
يرقصن ويدخنن ويسافرن بغير أزواجهن ، وبعض الاصوات هناك
ترتفع محرضة المرأة على ان تعيش على هواها مع من تشاء من
الرجال (١) . وأما المصرية فقد وصلت الى المرحلة التى كانت
تعجبني فى المرأة التركية من قبل ، ولكنى مازلت اخشى عليها تقليد
الأجنبية والاندفاع المدمر وراءها ، وقد نقلت هذه الأحاسيس
الى قصيدتى التى سوف تلقى فى الحفل القادم .

وفى الأسمية التالية ، اشأبت الأعناق وتطلعت العيون
وأرهفت الأسماع ، بينما كان المنشد يلقى أبياته :

اذكر لها اليبابان لا أهم الهوى المتهككات
ماذا لقيت من الحنـصا رة يا أخى الترهـكات
خذ بالكتـاب وبالحدـيد يث وسيرة السلف الثقـات
وارجع الى سنن الخـليـد قة واتبع نظم الحياة

ثم لم يلبث الهتاف ان تعالى يشق صمت الليل حين قاربت
القصيدة نهايتها ، واستعيدت الأبيات مرارا :

(١) السياسة الاسبوعية ١٧ يوليو ١٩٢٦ ، المنار ٢١ يوليو ١٩٢٥ .

بنسائها المتجددات
د كأنه شبح الميمات
كن خير الحاضنات
روح الشجاعة والشبات
أو معانقة الثناة
قبل الرجال محرمات

مصر تجدد مجدها
النافرات من الجمو
لما حرضن لنا القضية
ينفثن في الفتيان من
يهوين تقبيل المهند
ويرين حتى في الكرى



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم رمدى

الحكيم

دلف « العاصي (١) » الشاعر الشاب الى القاعة الخضراء الكبيرة ، فوجد جمعا من الشباب وتصفحته العيون فانتحى ناحية ثم جلس . لا شك أنهم مثله من طلاب الجامعات وشباب الشعراء والمعجبين بشعره وحكمته ، يأتون من حين الى حين ، ويلتقون به التقاء التلاميذ بالاستاذ ، يستعمون اليه ويأخذون عنه ويسيروا على دربه . لقد ارتبط به من زمن ، منذ قرأ شعره ونثره فأحبه ، وقدم اليه مجموعته الشعرية الصغيرة التي صور فيها فيضا من الاحزان يغوص فيها الى الاعماق ، فربت الحكيم على كتفه ، وقال بيته الذي يوحى بالسلاوى والعزاء والأمل جميعا:

وتعلمن اذا السنون تطاولت ان التشكى كان قبل أوانه

أحقا هذا ؟ . . . ما أصغر همومه اذن ، ولكن هناك وجها آخر لهذه الحقيقة فاذا كانت بداية الحياة كما يحسها ونهايتها كما يسمع غارقة في الهموم ، فما أتفه الحياة . وانتشلتهم هممة سرت حوله وصوت يهمس : وصل بنتاءور ، فتطلع الى حيث اتجهت الانظار ، ورأى شوقى يدخل بخطوات وانية ، مرفوع الرأس ، مبتسم الأسارير فحيا الجميع وتصدر المجلس . وأخذ يسأل عن غاب ذاكرة كلا باسمه . لا شك انه يحتفظ بذاكرة قوية ، فبعضهم لم يحضر سوى مرة أو مرتين ، وهم مع كثرتهم يتجددون دائما .

واستمع الجمع الى بعض المنشدين ، قرأوا شعرهم ،

(١) انتحر بعد طبع ديوانه الذي قدمه شوقى .

فأخذ بنتاءور - كما اطلقوا عليه - يشجع هذا ، وينبه ذاك الى ضعف تراكيبه أو تكلفه ، حتى انتهى الشعراء من شعرهم . فأخرج سيجارة وضعها في مبسمها ، ثم وضع ساقه اليمنى تحت فخذة اليسرى ، وتطلع الى الافق . لا شك أنهم يدركون أنه تهيأ لأسئلتهم ، فقد طووا أوراقهم ، وانبروا للمحاورة . قال واحد من الجمع :

- من العالم أيها الاستاذ ومن الحكيم ومن الطبيب ؟

- العالم من لا ينام والحكيم من لا يطعم والطبيب من لا يموت .

- هذا هو المستحيل أيها الاستاذ . . فماذا تعنى ؟

- اردت ان العالم من علم بالنهار وتعلم بالليل ، والحكيم من زهد في هذه الدنيا وقنع منها بكسرة ، والطبيب من ترك طباً يعيش به الناس بعد موته .

- درست الفلسفة أيها الأستاذ ولكنى لم أصبح فيلسوفاً فكيف تؤخذ ؟

- من التجربة ومن الطباع أكثر مما تؤخذ من الرقاع . والعاقل من له على كل أرض مدرسة ، وعلى كل طريق أستاذ ، المدرسة تقيم العقل في طريق العلم ولا تتكفل بوضوله ، كالمعبد يمد السريرة في الاعتقاد ولا يتكفل لها بكشف الغطاء ، قرب عابد من نفسه وصل ، ومتعلم من نفسه حصل . عرفت صفوف العالم فلم أر كالفلسفة يأخذها المرء من نفسه ، ثم من حيث التفت فرأى ، وكلما قيل له فسمع . من حديث المتكلم ان صدقا وان كذبا ، وصموت الصامت ان بكامة وان بكما ، ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية المستكبر وهذيان المهوس وعريدة السكران . ومن النمل

في مشاغلها والنحل في معاملها ، والذر في مستشاره ، والبرق في مستطاره ، والزهو اقباله وادباره ، والفلك ليله ونهاره ، والبحر مضطربه وقراره ، ومن النفس اذا اعتلت واذا صحت ، واذا طمعت واذا قنعت ، واذا رغبت واذا تسلت ، واذا شكرت واذا جحدت . ومن الطباع اذا امتحنت والسرائر اذا بليت والأهواء اذا اختبرت . مدارس لا يفرغ اللبيب منها ، ودروس لا يصبر الحكيم عنها .

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ : سمعنا في سياسة الأمم عن الشيخ محمد عبده ، أنه قال معبرا عن رأيه ورأى جمال الدين الافغانى « لا يصلح الشرق الا مستبد عادل » فكيف نجده ؟

— جئنى بالنمر العاقل ، اجئك بالمستبد العادل . هلكت يا بنى أمة تحيا بفرد وتموت بفرد . كان الانسان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله . ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عبادا للملوك يأتونهم طائعين ، غرهم التاج ، وخدعهم العرش ، وغشهم الحجاب ، وضللهم الاستبداد . اسمع يا بنى ، شورى من الحجاج وزياد ، خير من الفرد ولو كان عمر .

— وكيف تكون الشورى أيها الاستاذ ، وقد قال « جمال الدين » فينا : اتفقوا على أن لا يتفقوا ؟

— ما هذا السم فى الدسم ، ومن ذاك الذى يشبط الهمم ، هذا ومثله من الأوهام ، وأنها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس فتقتلها . الأوهام داء الأمم ومنية الشعوب اذا تمكنت من قوم كانت كالفأس فى الأساس وكالنار فى الشعار وكالحبل فى الخناق وكالعلة فى القلب لا يخفق الا الى حين . قال لكم رجل قولا فوهتم فتمم أحياء ، ليس مع السلوة عيش ولا مع القنوط

عمل ولا مع اليأس حياة ، وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهية العزائم وامائة القلوب واخراج النفوس من الرجاء الى اليأس الذى هو الموت فى اشنع صورته واقبح أحواله . أليس من الوهم القاتل للأنفس المميت للقلوب ، ان يصح فى أدهان خاصة المصريين ، أنهم أمة ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى فى أمرهم صلاح ، وان اتفاهم سبع الجهات ورابع المستحيلات ، الأمم يابنى لا تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنة الاضمحلال فما تلك الا بؤس تزول وحال ستحول . الأمة تصح ثم تعتل ثم تصح ، تتجدد من حيث تبلى وتقوم من حيث تسقط . ومن هذا تعلم ان العلم والبيان خلقا ليكونا حرب الأوهام ، ونورا يخرج اليه الأمم من الظلمات ، وان حاملهما مطالب بالعمل ، والدعوة الى العمل حتى النفس الأخير من الحياة ، فمن ثبط هممكم من علمائكم وعظمائكم ، فالووا الوجوه عنه ، وانفروا بالاسماع منه ومن دعاكم الى حياة فذلك داعى الخير فاستمعوا له وانصتوا وأولى بالدين يتصدون لفك الأمم وتحرير الشعوب ان يعلموها ان قيود الحديد لا تعالج الا بمبارد الحديد والعقل لا يقاوم الا بالعقل والقوة لا تستدفع الا بالقوة .

– وكيف تستدفع القوة والاحتلال رابض ؟

– علل الأمم يابنى باطنية لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج فى مواطنها ، وكل ضعيف الركن مضطهد وهذه سنة تسرى على الجماد والنبات والانسبان والحيوان . فالجبل يجذب اليه الذر ولا يجذب هذا اليه الجبل والسرحة تزهق الحشائش ولا تزهقها هذه والذئب يفترس الحمل ولن يكون له فريسة وكذلك الناس ، وهب ان الملك ادوارد وقيصر والآخرين ملكوا علينا البحر بالاساطيل ثم ملكوا البر بالجيش الزاحفة ، أكانوا قادرين على تفريق كلمتنا ان كان لها منا جامع أو تضييع حقنا أن كان له منا

طالب ، أم كانوا ضاربين على أيدينا ان لا نتداول أشياءنا فيهم
بيننا ؟ نشط الصانع منا بالاقبال ونشجع التاجر بالتهافت على
بضاعته . ان علمنا على أهل الصناعات منا نقصا ، تجملنا بنقصهم
حتى يزول فتجملنا بكمالهم فانا لا نزال عراة حتى نلبس مما حكنا
ولا نزال حفاة حتى تنعل أيدينا أرجلنا ولا نزال مشاة حتى
نركب فيما صنعنا ولا نزال نتوسد الثرى حتى نسكن ما بنينا
فان لم نفعل كنا أمة عارية كل أشياءها عارية وأعلم ان الاحتلال
الذى تستعظم أمره لا يشقى بمعاكس فعال عشر معشار ما يقيمه
ويقعده ويضايقه ويخرجه أخذنا بالصناعة والتجارة أخذ الأمم
الناهضة الراقية ، لأن الاستعمار يدخل اليوم كما يدخل التجار
فكل بلاد يحكمها الأجنبي في هذا الزمن انما يحكمها في الحقيقة
بذراع مرتفعة من الصناعة ويد قوية من التجارة .

– ما رأس مال الأمة اذن أيها الأستاذ ؟

– اللغة رأس مال الأمة في العلم والعرفان والدين رأس مالها
في التربية والأخلاق فاجعلوا المحل الأول في مدارسكم لهذين
فالثمرات انما تأتي بقدرهما ، والانسان اذا علم كان انسان العين
واذا جهل كان انسان الغابة ، والعلم ان لم يؤسس بالتربية كان
لحامله محنة وللناس فتنة ، فاجمعوا بينهما في الدار ثم في المدرسة
ثم في الحياة ، تلك المدارس الثلاث الكبر . فاما الدار فالأستاذ
فيها المرأة ، وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل وأما الحياة فالمرابي
فيها الزمن . فابدأوا بالنساء فعلموهن في الصغر يعلمنكم في
الكبر ، وربوهن في الطفولة ، يربينكم في الكهولة ، فالسقى بعد
الفرس والتربية قبل الدرس .

– وما الغاية التي نسعى اليها من طلب العلم ؟

– محب العلم يطلبه لذاته ، وهذا أول التوفيق في طريق

التحصيل وسبب النجاح الأوثق لأن النفس حيث رضاها وحيث يجعلها هواها ، ومن رضيت نفسه بالعلم قسما من أول يوم وامتلا فؤاده من حبه اقبل عليه وضمن به وانقطع له والفى التعب راحة فى تحصيله واستوى عنده السلامة والعطب فى سبيله ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه وأنه ما خلق فى هذا التقويم سدى ولا ساد نوعه على هذا الوجود عبثا ، فتأخذه من ذلك عزة بالحق وتنزل نفسه فى عينه منزلتها الحقيقية ، فيطاب العلم لها ، ويستكثر منه لأجلها ، ويجرى فيه الى الغايات فى سبيلها ، لما استقر عنده من أن العلم يحيى النفوس ويهذبها ويطلعها على الحياة وأسرارها ويوصلها الى كنز أغوارها ويسهل لها محياها ويهون عليها الفواجع فى دنياها ، وهذه هى المنزلة الثانية فى العلم يقف عندها سواد العلماء ولا يجاوزها الا أحاد ، فيعملون العمل العظيم ، ثم يموتون عن تراث فى الفضل جسيم ، من بنيان يخلدون أو حكمة يؤيدون ، أو مجد يشيدون أو فن يجددون وهذه هى رتبة الامتياز بالاختراع ، ولا يقال عن أمة أنها حية حتى يبلغ أفراد من بنيتها هذه الرتبة . فليس العلم لك بسفر ، حتى يكون لك فيه سطر وليس الأدب لك كتابا حتى تزيد فيه بابا .

– وانبرى طالب آخر يسأل / ما هى الفضيلة أيها الاستاذ؟

– ترك الرذيلة .

– وما الرذيلة ؟

– السكنى فى دار الجهل والبطالة فى الشباب .

– فما الحق وما الباطل ؟

– الحق نبي قليل التبع والباطل مشهور كثير الشبع .

– والقضاء ؟

- محكمة ظاهرية ألجا إليها فساد المحكمة الباطنية .
- والصالحون والمصلحون ؟
- الصالحون يبنون أنفسهم والمصلحون يبنون الجماعات .
- وما قيمة الشهرة ؟
- تغطى الشهرة على العيوب ، كالشمس غطى نورها على نارها .
- فما الشباب وما المشيب ؟
- الشباب أعراس الجمال والمشيب مآتمه .
- انى أحب العزلة كما أحبها البعض فهل هل فضيلة أم رذيلة ؟
- يا أخا العزلة . . انت لو طرت عن الناس ما وقعت الا عليهم .
- وما الحكمة ؟
- الحكمة مصباح ، يهديك حتى فى وضح الصباح .
- وتشجع « العاصى » ثم سأل : من طريد الحياة ؟
- من خطبها بلا عمل وصحبها بلا أمل .
- فما الموت ؟
- أول الخوف وآخره (١) .

(١) بعض هذا الحوار كتبه فى شيطان بنتاءور وبعض من حكمه التى سجلها فى كتابه اسواق الذهب .

بداية ونهاية

كان يوم الخميس الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ يوما مشهودا ، فقد أقام أعضاء البرلمان احتفالا بـكازينو سان استيفانو وذلك لتكريم سهد زغلول بمناسبة نجاته من حادث الاعتداء عليه وتقدم حافظ ابراهيم يلقي قصيدته واستعان بيديه ورأسه في الالقاء :

الشعب يدعو الله يازغلول
ان الذي اندس الأتيم لقتله
النسر يطمع ان يصيد بأرضنا
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت
النيل منبعه لنا ومصيبه
ان يستقل على يدك النيل
قد كان يحرسه لنا جبريل
سنريه كيف يصيده زغلول
الا تنام وفي البلاد دخيل
ما ان له عن أرضها تحويل

فلم يصنع شيئا ، ولم تنفعل الجماهير ، ولم تتحمس حتى للالقاء ، لا شيء أبدا اللهم الا ابتسامة علت الشفاء وغابت سريعا عندما قال « سنريه كيف يصيده زغلول » تورية لطيفة ولكن أين حافظ الذي كانوا يستمعون اليه منذ أكثر من عشر سنوات فيلهب أكفهم بالتصفيق ؟ وتقدم على الجارم يلقي قصيده شوقى، وتدفق الصوت هازجا :

نجا وتمائل ربانها
تحول عنها الأذى وانثنى
فيا سهد جرحك ساء الرجال
ودق البشار ركبانها
غياب الخطوب وطوفانها
فلا جرحت فيك أوطانها

فمرت النشوة الى الحاضرين .. نشوة ركاب السفينة التي اصطدمت بالأمواج المتلاطمة ثم تحول عنها الأذى ونجت ونجا ربانها

فتعالت انغام البشائر ، وطبول الافراح . ان الصورة والموسيقى
المصاحبة لها بلغت حد الروعة وتصايح الناس أعجابا بينما استمر
المنشد :

ارى مصر تلهو بحد السلاح
وما الحكم ان تنقضى دولة
ولكن على الجيش تقوى البلاد
الى الخاق انظر فيما أقول
ويلعب بالنار ولدانها
وتقبل أخيري وأعوانها
وبالعلم تشنتد أركانها
وتأخذ نفسى أشجانها

واشتد التصفيق ، واستعيدت الأبيات فقد مست مكان
الداء ، وأخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض وقد اهتزت رعوسهم
بالموافقة على كل كلمة وزموا شفاههم كأنما امتدت اشجان شوقى
اليهم وهو ينظر الى الجيل الجديد ، الأمل الجديد ، البناء الجديد
فيجد جانب الاخلاق وشيك التصدع وتعالى صوت الجارم :

ولن نرتضى ان تقد القنصاة
وحجتنا فيهما كأصباح
فمصر الرياض وسودانها
وما هرء مءاء ولكنه
تنهم مصر ينابيعه
واهلوه منذ جرى عذبه
وكم من أنك بهجوعة
ولكن رعوس لأموالهم
ويبتر من مصر سودانها
وليس بمعيبك تبيانها
عيون الرياض وخاجانها
وريد الحياة وشريانها
كما تم المين انسانها
عشيرة مصر وجيرانها
من الباطل الحق عنوانها
يحرك قرنيه شيطانها

أحمد الزين - ما رأيك يا بشرى ؟

عبد العزيز البشرى - الحقيقة ان حافظا قد انتهى من
زمن ، انتهى منذ عين بدار الكتب ، فقيدته الوظيفة بقيود غليظة
حتى ماتت ثورته وحماسته ، كان شعلة فانطفأت ، اطفأها بيده .

لقد كانت أمامه فرصة ذهبية حين نفى شوقى ، كان يستطيع ان يكسب جمهوره فقد أصبح الصوت الوحيد القوى فى مصر ولكنه صمت حتى مل الناس صمته وانصرفوا عنه ، آثر الكسل على النشاط . حتى اذا أرسل شوقى أبياته من وراء البحر فى الحنين الى مصر ، هب الشعراء يلوذون بأمرهم ويتوجعون له ، ومن ورائهم الجماهير تحلم بايابه .

- أتعرف يا بشرى أنه لم يقرأ كتابا واحدا منذ عمل فى دار الكتب ، فكأن الأسفار الكثيرة العدد وراء الزجاج السميك فى مخازن لا أول لها ولا آخر قد ألفت فى نفسه السأم ، ولولا ذاكرته العجيبة لما استطاع ان يجتر من محصوله الذى طال به العهد . والله لو حكمونى فى مليون جنيه لأعطيت « شوقى » تسعمائة ألف منها وأعطيت « حافظ » ما بقى .

- مسكين حافظ ، ان نفسه تهفو الى تلك المنافسة القديمة، كان يأتى احيانا ، حاملا قصيدة ليقرأها لنا ثم يعقب قائلا : لا يستطيع شوقى ان يقول مثل هذا ، ولا يعدم واحدا من الحاضرين يوافقه على قوله .

- كلما فرق بينهما أصحاب الصحف الصفراء بما يلمزون به حافظا فى شعره ، وهم يدركون ان حافظا سوف يشير الى شوقى بأصابع الاتهام ، حاول زميلنا فى دار الكتب «أحمد محفوظ » ان يستل ضغينة حافظ ، فيختلق له الأحاديث فى تكريم شوقى له وحبه اياه ، وهو طيب القلب يصدق كل ما يقال له كأنه طفل صغير ، ويحمل هذا الاختلاق نفسه الى شوقى ، ولكن سرعان ما يتغير حافظ . تغيره هذه الكلاب النابحة فى أوراقها الصفراء ، فيعود حافظ الى ذم شوقى وشعر شوقى . والحقيقة ان شوقى لم يذكره بسوء قط ، وحافظ على النقيض من ذلك ، فهو اذا غضب من وشاية مسموعة أو مكتوبة ، انهال عليه بالفاظ كالحجارة . ومن

ومن العجيب، أن حافظا إذا جلس الى شوقى لوح له فى حديثه أنه من رعاياه ، ولكنه اذا خلا الى نفسه أو الى جماعة أنكر هذا وقال :
منه أمير ومنى أمير ، كما قالت الانصار للمهاجرين يوم سقيفة بنى
ساعدة .

واذكر مرة أنا كنا فى حجرة التدخين بدار الكتب ، نستمع
الى حافظ وهو ينشدنا قصيدة جديدة فما كاد يلمح احمد
محفوظ داخلا حتى قطع انشاده وصاح مزمجرا : أخرج
ياجاسوس تريد ان تسرق معنى أو معنيين لتذهب بهما الى
شوقى ؟ فحجل محفوظ ، ولكن سوء الموقف دفعه الى القحة
فقال : يسرق منك أنت ؟ فعاد الطوبجى القديم الى قذائفه ،
فقال له محفوظ : على أية حال ان شوقى يدعوك الى مائدته
اليوم للغداء ، فلعن شوقى ومائدة شوقى وقال محتدم السباب .
والله لو مت من الجوع ما ذهبت ، ولم نلبث حتى دخل حسين
شوقى يحيى حافظا فتأمله ببصره الكليل المحتجب بالمنظار ثم
تبينه فاهوى الى خديه الناقلين ورحب به ترحيبا صادقا فدعاه
الى الغداء ، فما أسرع ما وافق متهللا فلما انصرف حسين
شوقى برر حافظ تناقضه بقوله : انى احب أولاده ، واتصلت
بينهما المودة (١) .

— ولكن شوقى أيضا له فصول باردة ، اتذكر يوم كتب أحد
الأدباء مقاله عنهما بعنوان « شوقى وحافظ » فبلغ حافظا ان
شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، لأنه لا يرى حافظا ندا
له ، فقال حافظ يومها : لماذا يغضب ؟ اننا متلازمان ، أما سمع
الناس يقولون « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى
أو غضبت ميت غمر ؟ ويقولون « سميظ وجبنه » و « خيار

(١) حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ١٦٠/١٦٣ ..

وفقوس « و « غسل ويصل » ثم يعقب على ذلك بقوله : « أما من يكون الغسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى (٢) » .

وقد تجنى على حافظ مرة أخرى عندما تقدم رئيس تحرير إحدى المجلات الى شوقي وطلب اليه أن يختص المجلة دون الصحف المصرية بنشر قصيدة على ان تمنحه المجلة مبلغا من المال يوجهه الى ما يشاء ، فقبل شوقي ، ونشرت المجلة هذا الخبر وذكرت ان شوقي تبرع بالمبلغ لجهة خيرية ، وقرأ حافظ الخبر فاشتعلت الغيرة في صدره وأسرع يهرول بعصاه الى « محمد محمود » وهو صديقه ، فتأثر « محمد محمود » ووعده بأنه سيسعى لدى المجلة لتشتري قصيدته مثلما اشترت قصيدة شوقي . وسمع شوقي فغضب وذهب الى المجلة لسحب القصيدة بعد الاعلان عنها ، فاضطرت المجلة الى تنحية قصيدة حافظ عن النشر ، وساء ما بين الرجلين ولكن نفس حافظ الطيبة ما لبثت ان غفرت .

— على كل حال ، لقد استكان حافظ اخيرا الى حظه ، وأخذ يترنم بشعر شوقي ، وكثيرا ما قال لنا : أنا أحسد هذا الرجل على أبيات في سينية الاندلس ، وعلى أبيات في ذكرى كارنارفون ، واعترف له بالتفوق في قصيدته التي قالها في حفل « عكاظ » ، ومن قبل اعترف شعرهما .

— صدقت .

(٢) الفكاهة في مصر لشوقي ضيف ص ٧١ .

معارك

كالصخرة لا تحطمها الوعول ، وانما تحطم قرونها ، يحاول شباب النقاد أن يصعدوا على أكتافه الى دنيا الشهرة ، ولو سلكوا طريقا أخرى لمد لهم يد العون ، ولكنهم تخيروا سبيلا كثيرة المزالق ، انها أخلاقيات النقاد المعاصرين كما قال له صديقه زكى مبارك . ولكنه هو الذى عود أكثرهم التطلع الى موائده وجيبه ، وكلمة احتاجوا طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه . لقد صدق الرافعى حين وصفه بأنه أصبح كالجواد الاصيل ينافس حتى ظله ، انه يغار حقيقة على شعره ، غيرة الكريم على عرضه ولذلك يخرس ألسنتهم ويقصف أقلامهم بالهدايا والهبات مع انه يعلم ان أولئك المرتزقة قد شوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه وقلبوا الحقائق الأدبية قلباً كريها ، بمعاولهم الصغيرة التى يحاولون بها الهدم لا البناء (١) .

نعم أخلاقيات النقاد ، أيبلى ببعضهم الزيف الى هذا الحد ؟ ثم يخجل أن يكون شجاعا فلا يعلن اسمه ؟ ان ادعاه مضحك مكشوف ولكنه مكشوف للخاصة فقط ، أما العامة فسوف يصدقون ان شوقى قد سرق بيته الشهير : « وانما الامم الاخلاق ما بقيت . . . فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا » وسرقه ممن ؟ من شاعر اسمه « ابن رعلاء العنانى » حيث يقول :

وانما الامم الاخلاق ما صلحت فان هم فسدت أخلاقهم فسدوا
والرعلاء مؤنث الارعل والارعل هو الاحمق والرعلاء الحمقاء

وابن الحمقاء لا يعظ الناس في الأخلاق ولكن من من العامة سوف يكلف نفسه السؤال أو البحث عن شاعر مزعوم يدعى ابن رعلاء (١) .

لقد تألفت في الآونة الأخيرة جماعة من هؤلاء الشباب تأمرت على شيوخ الأدب فقسموا أنفسهم واختص كل شاب بشيخ ليبنوا على أنقاضهم أمجادهم ولكنهم لن يصنعوا شيئا، وحين يدركهم اليأس سوف ينصرفون الى تشييد أنفسهم فيفلحون في الظهور . وهذه شنشنة قديمة ، فقد قال بشار : لقد هجوت جريرا فلو أجابني لكنت أشعر الناس وهذا بالضبط ما ينبغي أن يصنعه ، فلن يجيب واحدا منهم ولكنه سوف يطلق أصحاب الصحف الصفراء مثل «فؤاد الصاعقة» فهو لا يجارى في سلاطة لسانه ، يختار كلاما مسجوعا مسموما ينهال به على الضحايا ، في براعة فنية ، والشيخ فهيم صاحب صحيفة عكاظ ، فهو دائم الاحتفاء بقصائده ينشرها متوجة بهالات من الثناء عليه واللعنة على أعدائه ، أو غير هذين فكلهم يحوم حوله اما رغبة واما اعجابا (٢) ، وان كانوا أحيانا يجرون البلاء عليه ، فهو لا ينسى يوم هاجمت «عكاظ» العقاد وزميله المازني وعيرتهما بالتخلف والتقصير ، ثم أشادت بشعره فكانت النتيجة ان الف العقاد والمازني كتيبهما «الديوان» . الواقع ان للعقاد عقلية ناضجة ولكن طموحه المبكر هو السر وراء كل اندفاعاته وتحامله ، مع انه يعلم جيدا ان الميدان سيخلو له يوما . لقد جاوز في تحامله كل حد في ذلك الكتيب ، وانصب سوط عذاب ، يتهمه بالتفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر . وهو محق في جانب ، مخطيء في جانب آخر ، أليس يقول : « أما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه الوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت

(١) شوقي وحافظ لطاهر الطنحى ص ٢٠

(٢) حياة شوقي لاحمد محفوظ ص ٦٨ .

القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى ، فاذا اعتبرنا التشابه في الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع ، وهو ما لا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه أو الصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أدخل ذلك بوحدة القصيدة وأفسدها فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الاذن عن العين ٠٠٠ » (١)

كل هذا حق ولكنه عند التطبيق يتخير قصيدته في رثاء مصطفى كامل « المشرقان عليك ينتحبان » فيجري عليها تغييرا في ترتيبها ويخرج بنتيجة يبغها ، وهي فقدان الوحدة الفنية فهو يريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ، فلا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كالأشياء كما يقول . ولكن أليس من تحامله الفاضح أن يتخير قصيدة من قصائد الرثاء المليئة بأبيات الحكمة ؟ ومن طبيعة بيت الحكمة أن يستقل بمعناه وأن يستشهد الناس به منفردا . والواقع ان القصيدة العربية عموما تميل الى وحدة البيت الذي ينفرد بافادته حتى كأنه كلام مستقل كما يقول ابن خلدون . ولعل ذلك يرجع الى طبيعة القافية نفسها ، لان السامع أو القارئ يحتاج الى الوقوف عند آخر كل بيت ، فلماذا يتوقف عنده ولا يعرض للشعر العربي عامة ؟ ثم هل يطبق العقاد هذه الوحدة في شعره ؟ ان شعره لا يجمعه الا وحدة الموضوع ، فهو يقرأ النظريات النقدية الغربية التي تلائم الشعر الغربي ثم يحاول تطبيقها على الشعر العربي ، ويفشل هو نفسه لان طبيعة الشعر العربي الغنائية تجذبه جذبا لا فكاك منه .

ثم ينتقل العقاد بعد ذلك الى الاحالة فيقول : « أما الاحالة فهي فساد المعنى ، وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه » .

كلام جميل ، ولكن كيف يطبقه العقاد ؟

يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران

« وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى النعش ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك ، فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بانه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بانه سكر » . ما هذا التعنت ، وما تحكيم المنطق العلمى فى نقد الشعر واتخاذ السخرية وسيلة للنقد ؟ وهل يفهم من البيت ان فردا آخر كان الى جوار مصطفى كامل ؟ المفهوم دون شك أن الظلام الذى ضل فيه الناس وحاروا بعد موت الزعيم الوطنى يجعل الناس تتشك فى أن كل نور كان يضىء لهم الحياة قد انطفأ بانطفاء حياة مصطفى كامل حتى نور الشمس الذى يضىء نهار حياتهم وحتى نور القمر الذى يضىء لياليهم . على أن هذه النظرية النقدية قديمة نظرها النقد العرب ، وهى نظرة عقيمة الى الشعر تهمل العاطفة والمجاز ، وعندما سئل أبو تمام أن يملاً للناقد كأسه من ماء الملام بعد قوله « لا تسقنى ماء الملام ، أجب ، اذن فاعطنى ريشة من جناح الذل ، يشير الى قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » .

وينتقل العقاد بعد ذلك الى التقليد أو السرقة ، فينظر نفس النظرة النقدية القديمة ، ويحاول أن يثبت أن كثيرا من أبيات القصيدة مسروق من الشعراء العرب القدماء . وليت العقاد جارى

النقاد العرب في قضية السرقات اذن لأدرك تقسيمهم لتوارد الخواطر والتأثر والسلخ والسرقة وغير ذلك . والسرقة في عرفهم هي أخذ المعنى بلفظه أو ببعض لفظه وفرقوا بينها وبين التأثر لأن الاطار الثقافي ومحصول الشعراء من الثقافة الشعرية لا بد أن يسمح بتسرب بعض الصور المخزونة أثناء عملية الابداع ، والفضل بعد ذلك لمن يبدع في الصياغة . ومن المؤكد أن بعض الفنون كالمديح مثلا قد احترقت من زمن فلم يعد أمام الشاعر المتأخر الا أن يعيد عرض المضامين القديمة في شكل جديد وقد صنع ذلك المتنبي وغير المتنبي ، ولكنه التحامل من العقاد .

وأخيرا يتناول الناقد بعد ذلك الولع بالاعراض دون الجواهر ، ويقصد به التفاهة في المعنى غير انه يعود فيحكم المقاييس العقلية في أحاسيس الشاعر ، فيخرج الأمر في الحقيقة من النقد المنصف الى التعسف المقيت ، فهذا البيت الذي استحسنته كل النقاد وسار مسرى الأمثال على ألسنة الناس جميعا :

دقات قلب المرء قائله له

ان الحياة دقائق وثوان

« معناه في نظره أن السنة أو مائة السنة التي قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق ووثوان وهذا هو جوهر البيت فهل اذا قال قائل اليوم أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد أتى بالحكمة الرائعة ؟ » أليس في اقتران دقائق القلب بدقات الساعة براءة تهدينا الى واجب الضن بالحياة ، وتذكرنا ان كل دقة تعنى قدرا من حياتنا قد وضع خلفنا بعيدا عنا ؟

وإذا كان هذا التعسف واضحا فانه أوضح في مقالاته فهو يهاجم شعر الأحداث أو شعر المناسبات كما يسميه ويهاجم كل شعر قيل في كل مخترع حديث فهو في نظره تجديد قاصر لان

شعراء أوروبا وأمريكا لم يجتمع مما نظموه في وصف المخترعات
ها يملأ كراسة صغيرة ولان «جوته» لم يكتب بيتا في وصف الزلازل
السياسية التي أحقت بألمانيا في عصره . فهو يستلهم في حكمه
الصورة الادبية الاوربية وربط الشعر العربي بعجلة الشعر الغربي
تحكم وهو بالضبط ما يعيبه عندما يقلد شاعر معاصر شاعرا عربيا
قديما ، فهو تقليد على أية حال . ولكن تقليد الشعراء العرب أقرب
الى نفسيات الناس ان كان لا بد من التقليد وهذا ما اسقط شعر
شكري والمازني .

ان الشباب من النقاد يتتبعون شعره ، كل قصيدة ينتظرونها
ليكتبوا مقالة عنها ، ميخائيل نعيمة يكتب عن قصيدة العودة من المنفى
وطه حسين يكتب عن شيكسبير وشبان آخرون يكتبون عن أم
المحسنين ويتوقفون عند قوله « وقفى الهودج فينا ساعة » فيقولون
انها لم تعد في هودج وانما عادت في سيارة ، فلا زمام ولا ستر ولا
شئ ، فلماذا الارتداد الى الوراء ، الى الجاهلية وعصر الناقة والجمل ؟
عجيب أمرهم هل على الشاعر من بأس في استخدام ذلك كله ؟ انها
رموز منبعثة من الماضي السحيق تكسب الموقف جلالا ، واعجب ما في
الامر ان الشعراء الغربيين أنفسهم يستخدمون أشياء يونانية ولاينية
كثيرة ولا يلومهم أحد من النقاد لانهم يعرفون قيمة تلك الرموز في
اضفاء جو خيالي فيه القديم والجديد وفيه الماضي والحاضر .

وشعر المناسبات الذي كثر الحديث حوله ، ما خطبه ، ألم
يكتب ميخائيل نعيمة في « الحرب العالمية » ؟ ومع ان القصيدة من
شعر المناسبات فقد لقيت استحسانا من النقاد لان العاطفة فيها
دفاقة ، فهل من الممكن أن تحدث الاحداث الضخام وعلى الاخص
الاحداث الوطنية فلا ينفعل الشاعر بها ولا يعبر عنها لان شاعرا
ألمانيا لم ينفعل باحداث قومه ؟ ان الامر كله لا يعدو أن يكون صراعا
بين شيوخ الادباء وبين شبابيه . ولكن الغريب أن ينبعث صوت

شاحب من شيخ مهدم فى العراق • فقد سمع ان الشاعر الزهاوى
كتب سلسلة مقالات ينقد فيها قصيدته فى رثاء «اسماعيل صبرى»
حين يقول :

أجل وان طال الزمان موافى
اخلى يدىك من الخليل الوافى
ما انت يادينا ارؤيا نائم
ام ليل عرس ام بساط سلاف
وترى الجماجم فى التراب تماثلت
بعد العقول تماثل الاصداف

قالبيت الاول فيه ابتداء بالنكرة لا يجوزه النحويون، والثانى
فيه من الحشو البارد مالا يتجرع حتى فى حمارة الصيف ، والثالث
فيه مفارقات عجيبة ، وهكذا بقية الابيات ولكنه لحسن العظ قد
حاول أن يعارضها فانكشف وسقط • وتصدى له طالب اسمه «بهجت
الأثرى» على صفحات نقىس الجريدة التى نشرت نقده ، بل لقد نشرت
الجريدة نقد الطالب لقصيدة الزهاوى ورده عليه تحت عنوان « بين
اديبين » فرفعت الطالب الى مستوى الشاعر وهبطت به الى مستوى
الطالب ، والحقيقة انه طالب ألمعى ، فقد نبهه الى ان النحويين
يجوزون الابتداء بالنكرة اذا كانت هناك فائدة ، وصحح له أخطاءه
فقال ان هدف شوقى من رؤيا النائم وليل العرس هو اسراع الزمن
وليست اللذة كما وهم ، ثم انقض على قصيدة الزهاوى يبين مافيه
من سخف ، ووقف طويلا عند قوله معارضا البيت الثالث : «والقحف
بعد المنح غيبه الثرى» متقزرا من عبارته ، ثم القمه حجرا فلم يستطع
ردا (١) •

(١) جريدة العراق ١١ حزيران ، ٩ آب ١٩٢٣ •

واذا كان بهجت الاثرى قد تكفل بالزهاوى ، فقد تصدى
 مصطفى صادق الرافعى لمن أسموا أنفسهم بالمجددين ، الذين يحاولون
 الثورة على الادب العربى . وقد وقف كتابه « على السفود » ونذره
 للسخرية من العقاد ، فنقده نقدا جارحا ، وأظهر زيف ادعاءاته فى
 نظرياته النقدية ، وفشله فى تطبيقها عمليا فى شعره ، ففى شعره
 من السرقات والاحالة والاختفاء اللغوية والانهيال والبرود ما يفوق
 كل حد ، أما كتابه « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم
 والجديد » فقد ركز فيه الهجوم على طه حسين وان لم يعف العقاد
 ولا غيره من المخدوعين والمغرورين من بطشه . فهو يشبه انصار
 الجديد برجل اسمه « أبو خالد النميرى » تروى كتب الادب انه
 ولد فى البصرة ونشأ بها ثم خرج الى البادية فأقام أياما يسيرة وعاد
 بعد ذلك يتكلف لغة الاعراب ، حتى لقد روى انه رأى الميازيب على
 سطوح الدور فأنكرها وقال : ما هذه الخراطيم التى لا نعرفها فى
 بلادنا ؟ وهكذا ترى أنصار الجديد فتعرف منهم اباخالد الفرنسى
 واباخالد الانجليزى وغيرهم ممن ينكرون الميراث العربى بجملته فى
 لغته وعلومه وآدابه وهم على ذلك أعجز الناس عن أن يضعوا جديدا .
 وهكذا رد الرافعى سهام النقاد الى نحورهم أما هو فليس ناقدًا حتى
 يدخل المعركة انه شاعر وحسب وسوف يصنع ما صنع جرير ولكنه
 سوف يغيظهم دائما بانتشار شعره وعجزهم عن اللحاق بغباره
 والفخر بتلك المكانة المقدسة فى قلوب الجماهير :

رواة قصائدى فاعجب لشعر
 بكل محلة يرويه خلق

تتويج

كان يحس بغبطة شديدة فى ذلك اليوم وكأنما سرت دماء الحياة فى جسده فتية ترد اليه شمابه من جديد • وهو يعلم ان الاديب قلما كرمه الناس فى حياته مهما احترق من أجلهم حتى اذا مات أوقدوا الشموع له ، وحجوا اليه فى ذكراه ، ولكن صديقه أحمد شفيق أنباء ان كثرة من أدباء مصر قد اعتزموا اقامة احتفال كبير على نطاق عربى تكريما له ، انه أبلغ رد على أولئك المتعسفين من النقاد ، وأروع جزاء يناله •

كان ذلك فى أواخر اكتوبر عام ١٩٢٦ حين اجتمعت نخبة من المفكرين فى دار الرابطة الشرقية ، وقررت تأليف لجنة باسم «اللجنة العامة لتكريم شوقى» ضمت طه حسين وأحمد أمين ومحجوب ثابت والآنسة مى زيادة وفارس نمر وعبد العزيز البشرى وأحمد حافظ عوض وأنطون الجميل وغيرهم ، وانبثقت منها لجنة تنفيذية قامت بتوجيه نداء الى أبناء الوطن العربى كله حددت فيه يوم ٢٩ ابريل عام ١٩٢٧ موعدا للاحتفال الذى يستمر أسبوعا كاملا ، وطلبت فى ندائها أن تصلها الابحاث التى سوف تلقى فى المهرجان • ولم تمض أيام على هذا النداء حتى وصلت اللجنة أنباء عن تأليف وفود رسمية وشعبية من أبناء الاقطار العربية وأدبائها ، من فلسطين ولبنان وسوريا والاردن والبحرين وعدن ولحج والمهجر والمغرب وقرر منتدى التهذيب فى بغداد اقامة حفلة تكريم لشوقى فى نفس اليوم الذى يحتفل به فى القاهرة ، وارسال ما يلقي من كلمات للجنة التكريم العامة ، كما قرر المستشرقون البلجيك ايفاد الاديب فندنبرج نائبا

عن شعراء بلده ، ثم تألفت لجنة من الجمعيات النسائية لتمثيل المرأة
فى المهرجان (١) .

وتوالت الهدايا تعبر عن العرفان بالجميل ، وتقدير المواهب
الفنية ، فأرسل أمير البحرين نخلة من الذهب وجناها من اللؤلؤ ،
وبعث الاتحاد النسائى كأسا ذهبية ، كما قدم النادى العربى بعدن
قلما من الذهب ، وقدم النادى العربى فى بمباى ، علبة من الفضة
داخلها اطار فضى حول قصيدة « قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا »
ولكن أروعها جميعا وأكثرها دلالة ، كتاب تكريم من المجاهدين
انسوريين مههور بدم الابطال (٢) .

وفى ١٥ فبراير عام ١٩٢٧ تشكلت لجنة مالية وأخرى تنظيمية
وثالثة للحفاوة ورابعة لدراسة الابحاث والقصائد واختيار ما يلقي
منها فى المهرجان ، وقبل «سعد زغلول» رئاسة شرف الحفل - وكان
الرئيس الفعلى هو «أحمد شفيق» ، ثم وافق مدير الجامعة « أحمد
لطفى السيد » على اقامة تمثال لشوقي من البرونز يزاح عنه الستار
فى المهرجان (٣) .

وجاء يوم الافتتاح ، واجتمعت الوفود بدار الاوبرا ، وصدحت
الموسيقى ، وكان يوم عيد كبير . وتقدم الاستاذ الجديلي نائبا عن
سعد زغلول فى القاء كلمته نظرا لمرضه ، فحيا الوفود الذين جاءوا
معبرين عن أوثق الروابط الاخوية ، لتكريم الشاعر العظيم ، وتمنى
للمهرجان النجاح . واعقبه أحمد شفيق رئيس الحفل ، فألقى كلمة
قال فيها : « السلام عليكم يا امة العرب والسلام عليكم يا حماة

(١) ابى شوقى لحسين شوقى ص ١٤٤ ومابعدها .

(٢) اثنا عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء لاحمد عبد الروهاب ص ٤٠

ومابعدها .

(٣) أعمالى بعد مذكراتى لأحمد شفيق ص ٥٦ .

الادب ، ها انتم أولاء قد اجتمعتم من مختلف الاقطار لتكرموا شوقى ،
وبعبارة أصح لتكرموا العبقرية فى شخص رجل منكم يعود الى لغتكم
بكل ما أحرز من فضل ، ويعود على أقوامكم كل ما أحرز من فخار .
ليست الامم أيها السادة بكثرة عددها ، انما الامم بمن تخرج من
رجال عظام وأولئك ثروتها وأولئك عزها وأولئك ذكرها الخالد على
التاريخ . فاذا اجتمعتم اليوم لتكرموا شوقى ، فان هذا التكريم
ينطوى على معان عدة كلها سام وكلها نبيل : منها عرفان الجميل ،
وان الامة تقدر عظماءها وتنزلهم من الاكرام منازلهم الحقيقية بالاعظام .
ومنها تشجيع النابغين على العمل ، فان فتور الامم عن تشجيع
عبقريتها من شأنه أن يدب الفتور الى هممهم ، والخطب فى هذا
عليهم دون الخطب على الامة جمعاء . ومنها استدراج العبقريات
الناشئة فى نفوس الناشئين الى الظهور ، وهيهات أن يغريها شىء على
التجلى والتدفق كما يغريها اكرام من تمت عبقرياتهم من العاملين .
واننا اذا كنا فى العالم الشرقى بوجه عام ، وفى العالم العربى بوجه
خاص ، فى حاجة الى الاستمسك بأسباب القوة فأشد حاجتنا فى
ذلك الى الاستكثار من عظماء الرجال .

وهذا شوقى عظيم من يوم ظهر - وهنا أزاح الستار عن تمثال
شوقى - عبقرى من يوم نجم ، ولكم دوى صوته المرن بأغلى الشعر
وأزكى الكلام ، ولكم جدد فى لغة العرب وفسيح مجالها من بيان
وأدب ، ولكم رقى بها مرقى كريما بين لغات العالم » .

كلام جميل يزيده احساسا بالسعادة ، انه يومه دون شك
ولكنه لا يبغى كلمة تقليدية ، انه يبغى اعتراف الأدباء والشعراء
بامارته للشعر ووضع تاج القصيد على رأسه ، وبذلك يتم لأول مرة
فى تاريخ الأدب العربى الاجماع على ريادة شاعر واحد للوطن العربى
كله . ومن العجيب أن يكتفى العراق باقامة حفل فى بغداد ولا يرسل
وفداً يمثله فى المهرجان ، ولعل الرصافى الضحل الثقافة ، أو

الزهاوى الشاعر التعليمى يطمع فيما يطمع فيه العقاد ، وترامى الى سمعه صوت « حافظ عوض » سكرتير المهرجان يردد :

« لقد وضع شوقى « مصر » فى موضع الزعامة الأدبية على كافة البلاد العربية ، وهو ما تغتبط به مصر الناهضة وتقدم من أجله لابنها « شوقى » شكرها وتكريمها ، ان معرفتنا هذه المنزلة لشوقى فى العالم العربى بأسره من مراكش غربا الى البحرين وما بين النهرين شرقا هى التى دعتنا الى أن ننتهز هذه الفرصة ، فنجعل من تكريمه مؤتمرا عربيا أدبيا ، تعد أيامه أعيادا للعلم والأدب » .

لقد اعترف حافظ عوض بالزعامة الادبية ، ولكنه مصرى ثم هو كاتب ، لیت هذا الاعتراف كان من شاعر عربى ، ولكن من ينافس شوقى من الشعراء العرب ؟ لیت هذا الاعتراف اذن كان من النقاد العرب . لو اعترف محمد كرد على وهو الناقد الفذ لتمت البيعة ، واصاخ السمع الى كلمات الناقد بينما كان صوته الحفيظ يردد : « يحق لمصر اليوم أن تبالغ بالحفاوة بشوقى لنفوذ شعره الى أعماق قلوب العرب على اختلاف الاقطار والامصار ، فالشعر كما تعلمون ، ما برح منذ الزمن الاطول يثير نفوسا ويهذب عواطف ويجمع الاهواء الممزقة ويثقف عقولا ويلطف أذواقا . والحق يتقاضانا دينا أسلفه بعض الشعراء لنهضتنا الأخيرة ، وأن نذكر لهم محامدهم وننوه ببعض مآثرهم ، وفى طبيعتهم حامل لوائهم المجدد، عزيزنا وعزیز العرب : شوقى » انه اقرار صريح من الناقد العربى الكبير ، فلم يبق اذن الا الشعراء ، وعلى رأسهم دون شك حافظ منافسه القديم ، أما مطران فقد تخلف عن السباق ، ولماذا نسبق الاحداث ، انه ينشد أبياته :

يا باعث المجد القديم بشعره
ومجدد العربية العرباء

انت الامير ومن يكنه بالحجي
فله به تيه على الامراء
اليوم عيدك وهو عيد شامل
للضاد في متباين الارحاء
في مصر ينشد من بنيتها منشد
وصداه في البحرين والزوراء

ووقف حافظ فتطلعت اليه الانظار ، ان الناس جميعا يعرفون
تاريخ المنافسة بينهما ، فقد كانا دائما جوادين أصيلين ، والوفود
العربية مشوقة الى ما يقوله حافظ ، فهم يحبونه كما يحبون شوقي ،
وهو لا ينسى يوم ذكرت الصحف احتفاء أهل فلسطين بحافظ حين
زارها ، فاقبل عليه شيخ مهدم يقبله ويبكى ثم يردد : الحمد لله
الذي رأيتك يا حافظ قبل أن أموت . وانساب صوب حافظ كما
ينساب النغم من أوتار الكمان :

بلا بل وادى النيل بالمشرق اسجعي
مركز بشعر أمير الدولتين ورجعي

أعيدي على الاسماع ما غردت به
يراعة شوقي في ابتداء ومقطع

براهها له الباري فلم ينب سنها
اذا ما نبا العسال في كف أروع
تملكت من ملك القريض فسيحه
فلم تبق يا شوقي لنا قيد اصبع ..

أمير القوافي قد أتيت مبايعا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
فغن ربوع النيل واعطف بنظرة
على ساكني النهرين وأصدح وأبدع

وتوقف عن الانشاد وتقدم من شوقي الذى كان يجلس قريبا منه ، ومد يده مبايعا ، فعانقه شوقي وأخذ الموقف الناس فصمتت حيناً ، ولكنها لم تلبث ان أفاقت فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف ، حتى اذا سكت الهتاف كانت الدموع تترقق فى عيني شوقي ، وهو يدفع قصيدته الى الاستاذ محمد توفيق دياب .

مرحبا بالربيع فى ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه

رفت الارض فى مواكب آذا
ر وشب الزمان فى مهرجانه ..

أين نور الربيع من زهر الشعر
اذا ما استوى على افنانه

لم تثر امة الى الحق الا
بهدى الشعر أو خطا شيطانه

ليس عزف النحاس أوقع منه
فى شجاع الفؤاد أو فى جبانه ..

وهلل الحاضرون للابيات ، واستعادوها مرة ومرات ، انه أمير الشعراء ، ولا بد أن تكون قصيدته ذات مستوى فنى رفيع . واذا كان قد تحدث عن قيمة الشعر فى هذه المقدمة ، فالابيات التالية وصفية تنقل صورة سريعة لما حظى به من هدايا :

قلدتنى الملوك من لؤلؤ البحرين
آلاءها ومن مرجانه

نخلة لا تزال فى الشرق معنى
من بداواته ومن عمرانه

حن للشام حقبة واليهما
فاتح الغرب من بنى مروانه (١)

وحبثنى بمباى نصل يراع
افرغ الود فيه من عقيانه

انتضيه انقضاء موسى عصاه
يفرق المستبد من ثعبانه ..

ان حياؤه يمنعه من المباهاة بامارة الشعر ، فهو فى موقف
يحلو فيه التواضع ، فلا فضل له فيما يقول لانه كالمغنى الذى وهبه
الله الصوت الجميل وهو يدرك أن حافظا وغيره من الشعراء الكبار
قد اعترفوا بانهم منذ اليوم أصبحوا من رعاياه ، ولكنه يجمل قدرهم
ويعرف ان الحظ كان يمكن أن يكون هنا أو هناك :

شرفت مصر بالشمسوس من الشر
ق نجوم البيان من أعيانه

لست أنسى يداً لاخوان صدق
منحونى جزاء ما لم أعانه

رب سامى البيان نبه شانى
أنا أسمو الى نباهة شأنه

كان بالسبق والميادين اولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه

وتر فى الهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

(١) اشارة الى أبيات الامير الشاعر عبد الرحمن الداخل فى النخيل
الذى ذكره بوطنه .

ولكن قيمة فنه الحقيقية تتركز عند الجماهير في تعبيره عن
آلام وآمال الشعوب العربية التي ألفتها الجراح فراحت تبحث عن
الصوت المعبر حتى وجدته في شعره فهتفت له قبل أن يهتف له
المؤتمرون :

كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان العزاء في أحزانه
وتتابعت الاحتفالات في الايام التالية في مسرح الازبكية وفي
كازينو الجزيرة وفي غيرها وغنى عبد الوهاب وغنت أم كلثوم
وتوالت البحوث والقصائد ولكنه كان في نشوة عجيبة فهو مع
الوفود بجسمه ولكن روحه وخياله كانا يهيمنان في اودية عبقريته،
ويستعيدان لذة التنوير مرة ومرة ومرات .



مركز تحقيقات كميتر علوم إسلامي

فى الليل لما خلى

كانت « الكرمة » قد احتشدت بالزوار وازينت كعادتها أيام شم النسيم ، وفرقت الضحكات حين قص عليهم شوقى ما صنعه حبنى محمود فى عبد الستار الباسل فالاثنان عضوان فى البرلمان وكانا يجلسان متجاورين حين احتدمت المناقشة فى أمر من الأمور وحدثت ضجة عالية هب على أثرها عبد الستار الباسل من نوم كان مستغرقا فيه وسأل جاره عن السبب فقال له حبنى محمود : « بعض الأعضاء تقدموا باقتراح الى المجلس يطلبون فيه تحريم ذبح الجمال » فغضب النائب الذى الف هذا اللحم هو وأجداده فى القبائل وطلب الكلمة من سعد زغلول ، ثم وقف يهتج على هذا الاقتراح . ففطن سعد الى مكيدة حبنى وأجاب عبد الستار قائلا : « نم يا عبد الستار فان الجمال ستبقى فى خير »

وتوقف الضحك وسكنت الأصوات حين بدأ عبد الوهاب يداعب عوده ، فسرت الأنغام عذبة ثم انسأب صوته يحكى أن العيون النائمة التى لم تعرف الشجن ، والعيون اليقظى التى تشتهى النوم « فى الليل لما خلى » ثم انسجمت الموسيقى مع الصوت :

الفجر	شأشأ	وفاض
	على	سواد
لمح	كلمح	البياض
	من	العيون
		الكحيله

واستخف الطرب بشوقى حتى ألقى طربوشه على ركبته فهذا اللحن أسمعه اياه عبد الوهاب بتوزيع مختلف حتى تخير هذا الأخير

بعد مراجعته فيه مرات • لقد التقى الشاعر بمغنيه أخيرا ولكنه
ما زال يعتمد على التنغيم والتصوير وانتخاب الألفاظ ، ولكن صوت
عبد الوهاب هو الذى أخرجها فى هذا الاطار البديع • لقد استطاع
« عبد العزيز البشرى » ان يقدم اليه المطرب الموهوب الذى كان
يبحث عنه • والتفت البشرى الى شوقى يسأله وقد أخذته نشوة
الطرب :

– لماذا لم تنظم من قبل هذه الأدوار ؟

– لأنى لم أجد المطرب فلما وجدته نظمت له بالفصحى ثم
بالعامية ، حين وجدت الأغنية العامية أكثر انتشارا على ألسن الناس
ثم وجدت فى أغانيها ابتداء مروعاً مثل « ارخى الستارة الى فى
ريحنا أحسن جيرانا تجرحنا » ، بربك ما هذا السنخف ؟

– ولكن لماذا اخترت جانب الفراق واللوعة ؟

– لا يمكن أن تمتد الحماسة الى مالا نهاية والأعصاب المشدودة
بحاجة الى شىء من الراحة فاذا كان الجانب الوطنى قد سيطر أو كاد
على شعرنا الفصيح ، فمن الطبيعى أن تسيطر العاطفة على الأغنية •
وقد نظمت فى الفراق واللوعة أغنية « بلبل حيران » و « فى الليل
لما خلى » ، لأن الحرمان يصفى الأرواح والنفوس ، وهو الطابع العام
للمواقف العاطفية فى مصر ومع ذلك فقد نظمت فى اللقيا أغنية
« النيل نجاشى » ثم وصلت بها الى نهايتها فى أغنية « ليلة الزفاف » •

– مع اعجابى بمثل هذه الاغنيات العامية فان أخشى ما أخشاه
ان يتأثر بك شباب الشعراء •

– ان « رامى » قد تأثر فعلا بهذا الاتجاه ولكنه لا ينظم بالعامية
الا الأغنية مثل أغنيته الجميلة « ان كنت أسامح » لأن الأغنية شعبية
يردها الجاهل والمثقف والفلاح والموظف والصغير والكبير فاذا كان

لا بد أن تكون بلغة هؤلاء الناس ، فينبغي أن ترتفع بها ولكن في
اطارها العامي ، بمعنى أن تكون في ألفاظها بعيدة عن السوقية وفي
معناها بعيدة عن الابتذال ، أما الشعر فهو ليس فن الجاهل ولا فن
الطفل - وان كان للاخير منظوماته الخاصة - وأنا أخشى فعلا على
العربية من «بيرم» فان قدرته الهائلة على التعبير بالعامية عن كل
مواقف الحياة في مرونة ساحرة قد دفعت الناس الى ترديد ازجاله
وقد تدفع بعض شباب الشعراء الى الاقتداء به ونحن في حاجة الى
الحفاظ على اللغة العربية .

- هذا ما نشعر به لان الفصحى هي الجامعة اللغوية للشعوب
العربية وهي لغة القرآن ، ويكفي كما يقول الرافعي أن ينشأ جيل
واحد لا يقوى على قراءة القرآن حتى يقوم سد منيع بين العرب وبين
دينهم . ولكن القضية هي ما يثيره المستشرقون ويغرون به الناس
من أجل صرفهم عن تعلم العربية حين يشبهونها باللاتينية التي
هجرتها البلاد الاوروبية واستخدمت بدلا منها العاميات التي كانت
موجودة .

- لا يجوز القياس على اللغة اللاتينية لان العامي الفرنسي مثلا
ينظر الى اللاتينية نظرتة الى لغة غريبة . أما العامي العربي فاذا
فاته بعض الالفاظ ، فان المعنى الاجمالي يندر أن يفوته . وأما الزعم
بان اللغة العربية بدع في اللغات بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن لغة
الحديث فزعم باطل . فلغة الادب لا بد فيها من اختيار حتى بالقياس
الى العامية نفسها والانجليزى العامي لا يفهم سبنسر في فلسفة
العمران والفرنسي العامي لا يفهم أبحاث رينان في فلسفة التاريخ .
- ان الاتهام الموجود للعربية دائما هو انها عسيرة التعلم ،
وان العامية يمكن أن تحل محلها وهي لغة الشعب . وقد برز هذا
الاتجاه بعد ثورة ١٩١٩ ، التي أثارت الروح الشعبية ، مع أن العامية
مختلفة من بيئته الى بيئة اختلافا شديدا ، ثم ليست لها قواعد عامة ،

ومن أجل ذلك فهي سريعة التطور حتى لا تستطيع أن تفهم عامية القرن الثامن عشر مثلا .

يا أخي ان الذين يثيرون قضية صعوبة العربية ويتشاكون ، يتقنون ما هو أكثر منها تعقيدا ، بل أن منهم من يتقن لغتين أو ثلاثا معقدة في بعض الأحيان ويخجلون أن يخطئوا فيها ، حين لا يقيمون لغتهم وربما فاحروا بذلك وقالوا ساخرين (نحن لا نتكلم لغة سيبويه) ولعل كثيرين منهم لا يعلمون أن (سيبويه) كان فارسي الأصل .

- الأعبج من كل هذا أن يثير « سلامة موسى » في عدد يوليو ١٩٢٦ موضوع المسرحية وخلق الأدب العربي منها وقد قيلت آراء مختلفة في هذا ، ولكنه ادعى أن الفصحى هي السبب ولن تنشأ مسرحيات ما لم تكن العامية هي الاداء واستشهد بآراء المستشرقين في ذلك .

وغاب في تيار من الأفكار، أخذه بعيدا بعيدا ، أحق هذا الذي يسمعه ؟ لا شك أنه غير صحيح وربما أثبتت الأيام ذلك ، وتنبه على صوت عبد الوهاب يردد « كان مين مفارق وجيعته » وتصفيق الحاضرين ، وانفض السمار .

فى المسرح

لماذا لا يعرف العرب المسرح ؟ لا شك ان المسرح يحتاج الى الاستقرار فى بيئة متحضرة وكان العرب فى جاهليتهم يعيشون على هيئة قبائل رحل فمن العسير ان ينشأ المسرح بينهم لأن الفرد لم يحس مأساته الخاصة . ولكنهم استقروا فى العصور التالية ، وكانت لهم حضارات ، وترجموا عن اليونانية الفلسفة والمنطق ، فلماذا يفهموا المسرحية . وربما كانت هناك اسباب اخرى فالمسرح اليونانى كان قد اختفى حين ترجم العرب الثقافة اليونانية لان المسيحية فى ذلك الوقت كانت تراه مغرقا فى الوثنية ولكن السبب لن يكون على أية حال قصورا فى اداة التعبير فقد عبرت اللغة عن كل متطلبات الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية فى عصور التطور دون قصور . ولكن الدليل العملى هو وسيلة الاقناع وقد انتهت امارة الشعر اليه بالأمس ومن حق الأدب العربى عليه أن يسد هذه الثغرة ، وان يتجه بكل طاقته الى المسرح .

انه معجب بالمسرح الكلاسيكى فى فرنسا ، مسرح كورنى وراسين وأمثالهما ممن استمدوا أصول مسرحهم الشعري من التاريخ ومن أعمال البطولة وصاغوها صياغة أسلوبية ممتازة . وقد كان هذا التأثير واضحا يوم كتب « على بك الكبير » منذ ثلث قرن ، ولكنه اليوم أكثر نضجا وأعمق ادراكا لأصول الفن المسرحى خاصة بعد ان قرأ هنرى الرابع وهنرى الخامس والملك لير لشيكسبير .

كان يشهد رواية فى احدى دور السينما عن ملكة فرنسية

صورها المؤلف السينمائي في صورة امرأة داعرة ، لا تتورع عن شيء ، فأخذه العجب للمبالغات والاكاذيب التي تدخل التاريخ على أنها وقائع نتيجة هوى الكاتب السياسي أو ميوله الدينية أو رغبته في الاتيان بما يثير الجماهير ، وهنا برزت « كليوباترا » أمام مخيلته بما يحيطها من اطار سودته الشهوات . ودفعه هذا الموقف الى مراجعة التاريخ نفسه والاستعانة بعد ذلك بأساتذة التاريخ القديم في الجامعة وتجلى له ما اقتنع بانه الحقيقة فمنشأ التشويه اتى مما كتبه « بلوتارك » وهو من صنائع حكام الرومان ، وعنه أخذ غيره من المؤرخين الذين بالغوا في الحملة عليها ولكن بعض المؤرخين قد وقفوا موقف المدافع لا موقف المنصف ، فصوروها متعمقة في الديانة المصرية ومتضلعة في العلم والفلسفة ، بل حكيمة وفيلسوفة، وبرأوها من كل عيب ، وهو موقف لا يحتمله التاريخ ، ومن الانصاف لها وللتاريخ ان تعرض حياتها كما عاشتها فهي انسانة فاتنة لها ما للفاتنات من غى وهى ملكة لائمة عظيمة لها ما للعظماء من طموح وكبرياء ، وقد دفعتها هذه الكبرياء الى التضحية بالذات فى سبيل الكرامة (١) .

وهو قد شاهد في فرنسا مسرحية « كليوباترا » التي ألفها أميل مورو (٢) ومثلت عام ١٨٩٠ ثم اطلع على مسرحية شكسبير (٣) ، واعجب يوم قرأها بعبقريية المؤلف التي تجلت فى نمو البناء الدرامى فلم يبق أمامه الا أن يكتب المسرحية حتى اذا ما انتهى منها عرضها على صديقه « عزيز عيد » رجل المسرح المشهور ليناقشه فيها قبل عرضها على المسرح .

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٤٠ .

(٢) مجلة الكتاب عدد اكتوبر ١٩٤٧ « فوق جبال الالوب » لدرينى خشبه

(٣) مسرحيات شوقى لمدور ص ٤٠ .

وهكذا انكب على العمل أياما طويلة كانت المسرحية فيها هي شغله الشاغل ليلا ونهارا وحين تمت طلب « عزيز عيد » ، فقرأها قراءة متأنية ، حتى اذا ما طوى الأوراق ، سأله شوقى :

- لقد شكلت مادة المسرحية في حدود الاطار العام للتاريخ ، ولكنى استعنت بطبيعة الحال - بشخصيات ثانوية تلقى ظللا على الابطال لتكشف عن بعض جوانبهم ، وغيرت في الدوافع النفسية والاخلاقية للوقائع لتخدم الخط العام للمسرحية كما رسمته ، واعتقد ان هذا كله من حق الكاتب المسرحى .

- هذا صحيح . . . ولكن لاحظت انك تهدف الى أغراض وطنية وقومية ، ولعل هذا هو الخط العام للمسرحية الذى رسمته ، فلماذا اخترت فترة ضعف فى تاريخ مصر ؟

- ان الكوارث هى التى تظهر معدن الناس ولكن هل نجحت المسرحية فى حدود مادتها من حيث البناء ؟

- من المعلوم ان الكلاسيكية قد تعصبت لما يسمونه « الوحدات الثلاث » والملاحظ انك لم تنقيد بهذا القانون . ففي المسرحية نرى حبا آخر بين هيلانه وحابى . وقد اثبت الادب المسرحى الخالد أنه لا ضير من الخروج على المعنى الضيق لهذه الوحدة على شرط أن تكون الموضوعات الثانوية وثيقة الصلة بالموضوع الاصلى موضحة لبعض الجوانب النفسية أو الاخلاقية لابطال المسرحية . أما عن وحدتى الزمان والمكان فقد تحطمتا فى المسرحية ولا ضير فى ذلك اطلاقا ، وانما الضير فى تفكك المسرحية نتيجة ذلك وهذا لم يحدث فى المسرحية ولكن المهم هو ان تنتهى المأساة نهاية طبيعية بانتحار البطلين ، فما الحكمة فى ان تصحب تلك الخاتمة المؤثرة خاتمة أخرى سعيدة هى زواج هيلانه من حابى وانطلاقهما الى حياة سعيدة ؟ اخشى أن يكون فى ذلك ما يبلبل احساس المشاهد .

- الحق ان الاتجاه الاصيل فى المسرح الكلاسيكى ، بل وفى غيره ، ان تنتهى التراجيديات بخاتمة محزنة كما تنتهى الكوميديا بخاتمة مضحكة أو سارة ، ولكن هذه القاعدة غير مطلقة ففى الكثير من كوميديات مولير تأتي الخاتمة محزنة وان يكن من النادر الا تنتهى التراجيديات بمأساة . وربما أدت هذه المحاولة الى تخفيف قوة الانفعالات .

- من الاصول المتفق عليها مبدأ فصل الانواع بمعنى ان التراجيديات يجب أن تكون أحداثها مأساة متتابعة الحلقات لا يتخللها أى مشهد مضحك ولا أية فكاهة ، كما أن الكوميديا يجب أن تكون مهزلة خالصة لا تجرى المأساة فى أى عرق من عروقها ، والحق ان الرومانسية سخرت من هذه القاعدة مستشهدة بمأسى شكسبير التى لا تخلو من مناظر ضاحكة ومن شخصيات هزلية رائعة ، وقد وجدت فى هذه المسرحية مثل ذلك ، وكانت فلسفة شكسبير والرومانتيكيين فى هذا الخلط تقوم على ان المسرح عرض للحياة وما دامت الحياة لا تتورع عن ان تجمع بين المضحك والمبكى فليس هناك ما يدعو المسرح الى ذلك التورع ، والحجة سليمة ولكن هناك فرقا بين مضحكات شكسبير وبين « انشو » فى مصرع كليوباترا ، فالمهرج « اوفولستاف » عند شكسبير فيلسوف لاذع تقطر سخريته أسى ، أما هنا فالفكاهة لفظية .

- الحقيقة انى لم أقم بذلك ، الا مجازاة للروح المصرية المولعة بالنكتة المصرية والمرح الخفيف ، وان كان لشخصية « انشو » دور هام فى تخفيف حدة التوتر المستمرة فى المسرحية .

- انك شاعر غنائى لم تستطع أن تتخلص من غنائيتك ، والواقع أن المصريين شعب طروب بفطرتة أو محب للغناء ، وأنت طموح الى ارضاء الجمهور ، ونحن نعرف الى حد بلغ المسرح

الغنائي في مصر عند سلامة حجازي وسيد درويش • وليت عندنا من الموسيقيين من يستطيعون تلحين المسرحية تلحيننا كاملا ، على نحو ما فعل « ماسنيه » الموسيقي الكبير عندما لحن سنة ١٩١٩ مأساة غنائية عن كليو باترا • وعبد الوهاب يستطيع تلحين بعض المقطوعات الغنائية في المسرحية ، ومن المؤكد انها سوف تلقى نجاحا عظيما ولكن لو أنها لحنت ومثلت كأوبرا لنجحت أكبر النجاح أما الآن فان هذه المقطوعات الغنائية رغم نجاحها ، فانها دخيلة أحيانا على بناء المسرحية ، غير مجدية في سير الاحداث وتطورها (١) •

– هذا صحيح ، فكثيرا ما نظمت القطعة بنفس الصورة المعروفة في الشعر الغنائي ، ثم قمت بتوزيعها على المتحاورين وقد يزداد هنا أو يضاف هناك (٢) •

– الذي أخشاه أن يكون ذلك قد أدى الى أن تفقد الشخصيات كثيرا من حيويتها ، وهي تتكلم بشكل خطابي يقص أكثر مما يمثل ، فالاسترسال الغنائي يفكك الشخصية ، فهي لا تتضح بطول الحواز وانما تتضح بالصراع أولا ثم بالتطور علوم رادي

– ان الصراع موجود في المسرحية بين أنطونيو واكتافيو على سبيل المثال •

– ان مناظر الصراع الحسي موجودة ، ولكن الصراع النفسي هو المقصود ، وهو لا يندم ولكنه لا يتضح تماما ، ومن أجل ذلك فان الشخصيات بسيطة التركيب قليلة التعقيد •

– يا أخي ان شخصية كليو باترا على سبيل المثال أيضا واضحة تماما في قوتها وخطها الوطني •

١٩ راجع مسرحيات شوقي لندود ص ٢٠/١٦ •

(٢) شوقي شاعر العصر الحديث لشوقي ضيف ص ٧١ •

- هذا صحيح ولكن الشخصية تحيا بنواحي الضعف كما تحيا بنواحي القوة وربما كان تحليل نواحي الضعف أكثر قدرة على أحيائها واكسابها أبعادا انسانية ، ومن هنا كانت الشخصيات الثانوية أكثر وضوحا فلا شك أن شخصية هيلانة متكاملة (١) .

- ربما .

- بل هذا صحيح ، فشكسبير قد قرر مسرحيته عالما منسجما يدور حول فكرة وفلسفة واحدة هو الهوى والتضحية في سبيله ، لم يختلف في ذلك انطونيو أو كليوباترا ، وبذلك وضع لها قاعدة تتصل بنفوس الناس وتهوى الى أعماقهم ، وصور الموضوع تصويرا انسانيا شمل الكون . فانطونيو يضحي بمجده وهو يعلم بضعفه ويهجر اكتافيا الى كليوباترا وهو يعلم ان ذلك سيثير عليه سخط الرومان ، وتظهر كليوباترا بمظهر المرأة التي تجمع في ذاتها حواء المعقدة الغامضة . وواضح انك جعلت كليوباترا متعددة الجوانب ، ولكنك ابقيت الصفات الطيبة وحدها والانسان مزيج من الخير والشر .

- قلت ربما

- ان هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة المسرحية كثيرا فهي فتح جديد في الأدب العربي ونجاحها أكيد .

- لو نجحت النجاح الذي تتوقعه ، فسوف يدفعني ذلك الى مزيد من العمل في مجال المسرح .

- وماذا تنوى ان تعمل ؟

- أمامي من التاريخ العربي « مجنون ليلى » و « عنتره » .

(١) المسرحية في شعر شوقي لمحمود حامد شوكت ص ٤٤ .

- هل قرأت « روميو وجولييت » لشكسبير ؟

- نعم . ولعل هذا ما يدفعنى الى كتابة هذه المسرحية ، كما شاهدت فى باريس مسرحية شكرى غانم الاديب اللبنانى عن عنتره ، وقد كتبها بالفرنسية ومثلت هناك ولكنها لم تعجبنى وان كانت قد لغت نظرى الى الموضوع الذى ينبغى أن تعاد كتابته من جديد .

- الحقيقة انك موفق فى هذا الاختيار لانهما شاعران ومن أجل ذلك فسيندمج الغناء فى القالب المسرحى نفسه ، دون أن يظهر بارزا يعوق سير المسرحية .

- وعندما كنت فى باريس عام ١٨٩٠ شاهدت «ساره برنرد» تمثل دور جان دارك ومازالت تلح على فكرة كتابة جان دارك مصرية ، هى « ناتيتاس » بطلة قمبيز التى أفكر فى كتابتها من التاريخ المصرى القديم وانت تعرف اننى أستطيع الكتابة فى أكثر من مسرحية فى وقت واحد دون أن يؤدي ذلك الى خلل فى واحدة ، أو اضطراب فى أخرى .

- ولماذا لا تفكر فى مسرحيتك القديمة « على بك الكبير » ؟

- انها جديرة بالتفكير فعلا .

- ولكنى أتساءل عن قيمة الصياغة الشعرية فى مثل هذه المسرحية ، فهى حديثة تحتاج الى صياغة تقربها من الواقع ولغة الواقع هى النشر .

- اذا كان المقصود من المسرحية نقل الواقع كما هو ، فان آلة التصوير أقدر من الكاتب المسرحى ولكنى أرى الشعر وسيلة ناجحة للتصوير العاطفى خاصة فى المسرحيات التاريخية والفن على العموم يجذب حواسنا بما يلون به الواقع من الخيال والشعر أقدر على ذلك من النشر .

- ولكن للشعر قيودا قد تحد من حرية المؤلف المسرحي .

- هذا صحيح . وربما كتبت مسرحية نثرية لأن حياتي في الاندلس سنوات أيام النفي جعلتني أعيش واقع الاندلسيين وتاريخهم ، وقد جمعت مادة عن المعتمد بن عباد تصلح لمثل هذه المسرحية .

- ولماذا تفكر في المآسى دائما ؟ لماذا لا تحاول كتابة ملههه ؟

- ان الضحك له مغزاه الاخلاقي والاجتماعي لانه يعالج بعض عيوب المجتمع ، وفي حياتنا عيوب تستحق أن تعالج بالسخرية والضحك فعلا ، مثل البخل ومثل المرأة المزواج العجوز التي يطمع فيها الشاب من أجل مالها ولكنها حريصة كل الحرص على ألا تفقده فتفقد قيمتها نفسها في أعين المتطلعين اليها . وملاحظتك جديرة بالالتفات فعلا ، ان كان في العمر بقية .

- أبقاك الله وقواك من تحقيقك كابتور علوم رمدى

وعندما ارتفعت الستار عن المنظر الاول من المسرحية ، أحس بقلق غامض فهو موقف جديد عليه على الرغم من حضوره التجارب أكثر من مرة ، ولفته أنظار الممثلين الى اخطائهم ورضاه عن قدرتهم ودخل « ديون » فرحا يبلغ حابي احساسه بالنصر :

يومنا في اكنيومنا	يومه في الارض سار
اسألوا اسطول روما	هل اذقناه الدمار
احرز الاسطول نصرا	هز اعطاف الديار
شرفا اسطول مصرا	حزت غايات الفخار
صارت الاسكندرية	هي في البحر المنار
ولها تاج البريه	ولها عرش البحار

وأحس الجمهور بشيء من الحماسة وهو يرى أمله يتحقق على المسرح ، فضج بالتصفيق وأحس الشاعر بالطمأنينة تسرى الى فؤاده وبلذة النجاح في هذا العمل الكبير ، فتابع المسرحية بشوق كأنما يشهدها لأول مرة حتى اذا ما أسدل الستار ، شعر شعور الوالد يعرف روعة الابوة للمرة الاولى .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الباب الخامس

اللحن الباکی

دموع البلب

شبيعت احلامي بقلب باك
ورجعت ادراج الشباب وورده
وبجانبي واه كان خفوقه
كنا اذا صفقت نستبق الهوى
واليوم تبعث في حين تهزنى
ولمت من طرق الملاح شباكى
امشى مكانهما على الاشواك
لما تلفت جهشة المتباكى
ونشد شد العصبة الفتاك
ما يبعث الناقوس فى النسك

كان دائم التردد لهذه الأبيات التى يبكى فيها القلب وتجمد العين ، وهو عذاب يحسه يتسرب الى أعماقه بعد أن أشرف على الستين وعاش حياة عريضة خصبة انتزع كأسه فيها من اللذات حتى اذا جفت الكأس ولم يعد قادرا على ان يملأها ، هم بتحطيمها على شفثيه . وماذا يبغي من الحياة اليوم بعد ان افلتت من بين ذراعيه الواهيتين أو كادت . ان صديقه « شكيب ارسلان » يعجب لهذا الهرم الذى أسرع اليه اسراعا قبل غيره (١) ، يعجب لهذه الانحناء التى كادت تثقل ظهره ، لولا بقية من العافية لم تستنفد يتكىء اليها ، ويعجب لهذه الغضون التى ملأت جبينه كأنها خطوات الأيام على درب الحياة ويراه زكى مبارك أشبه بالقديسين فى هذا الشحوب الذى اعتراه وذاك الشيب الذى غزا حاجبيه وشاربه بعد أن انتهى من فوديه ، وتلك الخطوات الوائبة التى يسير بها (٢) . ولكن الأصدقاء قد نسوا أن الماضى العابت المهلك

(١) شوقى أو صداقة اربعين سنة ص ٩٤

(٢) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٧٠

للعافية السالب للقوة حتى في ابان الشباب وعنفوانه قد غفل طويلا ، فهل يغفل الي مالا نهاية عن الشيخ الذي يأكل كما يأكل الشباب ويسهر أكثر مما يسهر الشباب ويجول كما يجول الشباب وهل تجدى مقويات الأدوية في دفع الماضي عن أن يفعل فعله بهذه الانسجة العتيقة وتلك الأعصاب المرضوضة المتوترة دائما ؟ كلا ، فقد استيقظ الماضي ليهزم الحاضر ويثبت وجوده .

لقد كانت ليلة قاسية ، فقد كان الألم لا يحتمل ، ومر بخاطره شبح الموت رهيبا قاسيا ، ولكن الله فرج الأزمة ، وقد طمأنه الطبيب ولكنه لم يطمئن ، ان اخشى ما يخشاه ان يكون المرض تصلبا في الشرايين ويلح الماضي المنتقم على هذا الجسد الواهن . واذا كان الألم قد زال ، فان آلامه كثيرة لا تنتهى بعد أن ترك التدخين وترك الشراب وترك القهوة وسجن في حجرته . ولكن العجيب ان يبقى ذهنه شابا متوقدا النشاط لم تنل العلة منه ، فليس أمامه الا أن ينكب انكبابا على القراءة والنظم لينسى مرضه في هذين .

مركز تحقيقات كميونر علوم إسلامي

لقد عرف سهر المنازل التي لم يألف السهر فيها قط ، لم يعد يقوى على التنقل بين المقاهى والأماكن المطروقة من غرباء لا يعرف بعضهم بعضا ، حتى يوشك الفجر على البزوغ ، فليس أمامه الا دار اسماعيل شيرين فهى من تلك الدور التي ألفت غشيان الأدباء والظرفاء من عهد بعيد ، كانت منتدى من تلك المنتديات التي عرفتها القاهرة لأجدادنا الذين لم يعرفوا مشارب القهوات ونوادى السمر المفتوحة للهو ، ولا صالات الرقص ولا بارات الشراب ، وانما كانوا يتزاورون في بيوتهم . واغلقت البيوت أبوابها ، بعد ان هجرها الناس الى الاماكن العامة الا بيت اسماعيل شيرين الذى حافظ على هذا الطراز القديم في التزاور، فهى تستقبل فلولا من الذين يحنون الى هذا السمر .

ودخل عليه كاتبه « أحمد عبد الوهاب أبو العز » وبينده كتاب « المختصر من مكاشفة القلوب للقرظى » و « صحيح البخارى » ، أنه يعرف كم أصبح مولعا بكتب التصوف عموما والقرآن والحديث خصوصا ، فابتسم ابتسامة هادئة وطلب اليه ان يقرأ في الكتاب الأول . حتى اذا انتهى الى وفاة الرسول لم يملك نفسه فأخذ يبكى ، وبكى كاتبه معه تأثرا ، وما هي الا لحظات حتى بلغهما نعى والد كاتبه .

بالشيخ العظيم المسكين ، شوقى الذى كان لا يزور سرادق الأموات أبدا ولا يعرفها ، ولم يطرقها للمجاملة ولو كانت لأصدق الأصدقاء وأعظم العظماء ، يذهب الى سرادق متواضع فى حى السيدة زينب ، ينتظر فى ركن فيه ساهما ساكنا ، يتغير القراء فى تلاوتهم للقرآن ، وتنفض جماعة وتدخل أخرى وهو جالس فى هذا السرادق الذى تفوح منه رائحة الموت ، وهو الذى يهرب من أحاديث الموت . أنه المرض وثقله وشبحة المقيت الذى يرفع يده فى الظلام ويشير الى الموت ليقرب ، وهو الذى جعله يقف فى حديقة داره الواسعة يتمل تلك المساحة ويقيسها فيخطئ فى التقدير فيسأل كتابه :

— هل تستطيع أن تذكر لى مساحة القبر ؟

— لا قدر الله ، اظنها عشرين مترا .

— وما مقدار مساحة حديقتنا ؟

— اظنها ثلاثة آلاف متر .

— قسمها على عشرين .

— تساوى مائة وخمسين .

— سبحان الله . . ان ثلاثة آلاف متر لا تكفينا فنفكر في ضم قطعة الأرض الفضاء المجاورة وعشرين مترا فيها أعظم الكفاية لتضم العظام ما ابعد طمع الانسان !! وسكت هنيهة ثم استطرذ قائلا : لقد اوصيت الجميع بك خيرا فكن مطمئنا ، ولكن مازلت أفكر فيما يضمن لك تربية أبنائك في المستقبل . وان عشت قمت لك بتكاليف الحج وان كان غير ذلك فسيقوم ولدى على بذلك عنى فلا تنس الفاتحة لى بأرض الحجاز . وشكره كاتبه ثم انصرف ، ودخل هو الى فراشه لينام ، ولكن النوم جفاه ، ومرت به صور اجفل لها ، ما ابشع الموت وما اقساه نهاية للحياة ، ان البحث عن الخلود مشكلة الانسان الأولى فمنذ العصور البدائية والانسان يفكر في هزيمة الموت ، تارة عن طريق الاسطورة ، ايزيس وأوزوريس ، الربيع المتجدد الخالد ، وطورا عن طريق الفلسفة وتناسخ الارواح حتى اذا دهمته الحقيقة المرة في عصر الحضارة، لم يبق أمامه الا خلود الذكر والأثر والتاريخ . أما ان ننتهب الحياة لأنها قصيرة فنزيد في قصرها ، أو نعتزلها فنزيد في طولها ، فتلك فلسفة قصيرة النظر . وكأنما ارتاح الى هذه النتيجة فارعوى الوسن ثم اغفى .

عقدة الخوف

– لقد فحصت اباك بالأمس يا حسين ، ووجدت الوهم يسيطر عليه أكثر مما يسيطر عليه المرض ، وذلك هو السر البعيد وراء كثير من الظواهر المتناقضة في تصرفاته ، تلك التي تبدو للمحيطين به شاذة فيفسرونها بأن الرجل ذا شخصية مزدوجة .
الم يقل الدكتور محمد حسين هيكل انك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر ؟ أحدهما مؤمن عامر النفس بالايمان والآخر رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة . وأنت لا تشعر في أى الحالين بضعف نفساني دفع به الى لبوس روح غير روحه .

– ولكن هذا يكاد يبدو صحيحا فأنت تراه في الحياة اللاهية فتحس أنه ينغمس في ملاذ دنياه ولا يعيش الا من أجلها ، ولعل هذا واضح في شعره مثل قصيدته « حف كأسها الحبيب » ثم تراه في مواقف أخرى وقد استبد به الشعور الديني فقد عنفني مرة في غضب شديد – وكنت صغيرا – لأنني مسست دون قصد جانبا من جوانب الدين على حبه الشديد لى ، وعندما عدنا من المنفى وجدنا منزلنا سليما لم يمس بسوء فارجع ذلك الى بركة لوحة معلقة على المدخل مكتوب عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله » وشعره ناطق بهذه الشاعر العميقة وعلى الأخص في مدائحه النبوية ففيها الضراعة والندم . وحتى في لذته فان ضميره الديني لا يدعه يهنأ باللذة الخالصة فعندما يقول « رمضان ولى هاتها ياساقى » ، « ما كان أكثره على الافها » يقول « واقله في طاعة الخلاق » .

— أنه يخاف الله بدلا من ان يحبه ، ويخاف فقدان اللذات فيغنى فيها ، ولو احب الله بدلا من ان يخافه لاحب الحياة بدلا من ان يخاف فقدانها ، وأنت اذا خفت فقدان غانية تفانيت حتى امللت ففقدتها ولكنك لو احببتها لاحتفظت بها أطول مدة دون اسراف . من أجل ذلك خاف الموت وكره أن يتحدث عنه في مجالسه كما كره أن يتحدث غيره عنه أمامه ، ونحن نعلم هذا فنتحاشى ذكره في وجوده ، فلا ننعى ميتا ولا نخوض في حديث الموت ولا فلسفته ولا في أية ناحية من نواحيه ، وتستطيع أن تتبين حيرته الدائرة في الخوف من الموت بكل مراثيه ونحن نذكر له دائما قصيدته في رثاء « رياض » والاستفهامات المتلاحقة التي تنبىء عن فزع شديد .

**سألتك ما المنية أى كأس وكيف مذاقها ومن السقاة
وماذا يوجس الانسان منها اذا غصت بعلقهما الهاة
وهل تقع النفوس على أمان كما وقعت على الحرم القطة**

— هذا حق ولعله سبب تشاؤمه وتفاؤله فى كثير من الاحيان، فهو يستبشر خيرا اذا سمع ثناء على صحته ، وقد عرف « محفوظ » عنه هذا ، فاذا عاده مريضا فى داره أو سمعه يشكو وجعا فى مكتبه أسرع قائلا : والله ان وجهك ينبىء عن صحة وشباب ، فيطير فرحا ويلتفت الى والى أخى على ويقول : أما فيكما من يقول لى مثل هذا ، ويسر بقية يومه . واذا اخطأ احمق وصدقه القول فى شحوب وجهه وأثر علة فالويل له وعليه اللعنة . حدث ان قريبا لنا عاده يوما وكان ملازما للفراش ، فلما دخل اليه صاح فى لهفة وكان جهورى الصوت : مسكين ياعمى سلامتكم . فما كاد يسمع هذا الصباح حتى أخذته رعدة وانتفض من الغضب وصاح فيه : اخرج ، اخرج ، أنا عمك من أين ، يا حمار،

وكرر هذا مرارا . ولم يكن هذا العائد طفلا بل كان موظفا له مكانة مرموقة . واذا فاه أحد جلسائه بكلمة تحمل معنى الشؤم ، وجم ، وقطع حديثه وترك المجلس . ويذكر « محفوظ » أنه لقيه مرة أمام دار السينما ، وكان مستغرقا في قراءة اعلان الرواية فياغته بالتحية فما كاد يسمعها حتى ارتعد وخاف وزجره قائلا : يا أخى أنا ظننتك فوضويا قاتلا يريد بى شرا . فقال محفوظ : وهل القاتل يحيى مقتوله قبل القتل ؟ فتشائم وتركه مسرعا .

— ثم هرب من الخوف الى الخوف ، فعندما خاف الموت أكثر من التفكير فيه وحيدا ، فأصبحت الوحدة نفسها مخيفة فهرب منها . من كان يظن ان شوقى يحضر العزاء فى وفاة والد كاتبه ثم يخرج ثم يعود كل ذلك من أجل أن يصطحب كاتبه معه ، فلا يشعر بالوحدة ؟

— وهل خوفه الدائم من المرض يرجع الى ذلك أيضا ؟ فانت تعرف انه يتعاطى الدواء حتى ولو لم يكن مريضا ، فى صورة اقراص وسوائل ، متوهما ان هذا عدة لدفع الأمراض التى يخشاها ، واذا جلست معه الى المائدة وجدت زجاجة اليود موضوعة والى جوارها كوبه فارغة ، فاذا جاء الى منتصف طعامه افرغ قليلا من الماء ومزجه بخمس نقاط من اليود وشرب ذلك جميعا ، ثم شرب سيجارة وادعى ان فى هذا تطهيرا للحلق من الميكروب الذى ربما يعلق ببعض طعامه أثناء تناوله ، ثم استأنف تناول الطعام . وتذكر حين استدعاك مرة ، يوم كان معه كاتبه يملى عليه أبيانا فاحتاج الى دواء فى لون الماء لشربه ، فطلب من كاتبه أن يحضره له ، فأخطأ الكاتب واحضر زجاجة البوريك لأن غرفته تشبه صيدلية لكثرة الادوية المنتشرة فوق الرفوف فما كاد يعب منها قليلا حتى أحس بالبوريك فتفله مرتاعا وصاح بالكاتب مهددا متوعدا وقد ظهر عليه هول الموت فما كان من الكاتب المسكين الا أن عمد الى الزجاجة فأفرغها كلها فى جوفه رعبا منه ليموتا

معا فى زعمه ، ولكنك هونت عليه الأمر حين ذكرت ان البوريك مطهر
ولا ضرر منه .

وأنت تعرف أنه يلبس الصوف شتاء وصيفا ، يلبسه
خفيفا في الصيف ثقيلًا في الشتاء ، وينتقل بالجورب في قدميه
داخل البيت لم يتركه قط في نوم ولا يقظة ، ويخاف البرد خوفا
قاتلا ، ويتقى حتى نسمات الخريف . فكنا اذا جلسنا في الحديقة
معا حتى في أكتوبر وهبت رياح الخريف في بواكيرها ، هب واقفا
وهو يقول : هيا الى الداخل ، فاذا احتججنا بأن الطقس لطيف
قال : من اللطيف يخاف على كل حال . ثم هو يزورك في العيادة
أو يستدعيك بالمنزل صباحا ومساء دون مرض ولكن ليطمئن
قلبه . حتى سجائره يدخنها في مبسم ذى أنبوب يغسل دائما
بالكحول ، وله عدة مباسم ، يأمر بتنظيفها دائما خشية اليكروب
وخوف العدوى ، وما صافحه انسان الا وكانت له في هذا الشأن
تصرفات تخجلنا أحيانا . حدث مرة أن اصبحت في حادث سيارة
وجاء « محفوظ » لزيارتي ، فلما صعد الى الغرفة استوقفه أبى
على بابها ، وأمر بزجاجة « كولونيا » صبها كلها على رأسه وثيابه ،
فلما احتج غاضبا وهو يقول : انى لست قدرا ولا حامل عدوى ،
سمعته يقول وهو يضحك : هذا شأنى مع كل من يزور مريضا
عندى . فأجابه محفوظ : ولكن هذا يكلفك كثيرا ، وينفر عواد
مرضاك ، قال : لا يهم مادمت استريح الى ارضاء هواجسى في
دفع العدوى .

— الحقيقة انى اعزو هذا الى ماضيه البعيد ، يوم كان
في فرنسا ، فأنت تعرف أنه أصيب بالكوليرا وأشرف على الموت
ولو كان هذا الحرص ملازما له في تلك الأيام ما أصيب بالكوليرا
فعندما استقر في عقله الباطن ان الأهمال في النظافة قد يودى
بحياة الأسان جن بها جنونا ، وحاول ان يتقى المرض بكل

وسيلة . ولا شك ان الخوف انطلق من قمقم في نفسه فطبع جوانب حياته .

— هذا حق فهو يفرع فرعا شديدا من النفي مثلا بعد ان مر بتجربته القاسية فقد عرفه محفوظ بعد عودته من المنفى بشهر واحد ، ثم تأكدت المودة تأكدا متينا وقد كان « محفوظ » مفتونا بصحبته سعيدا فأراد أن يظهر هذا الافتنان وتلك السعادة وذلك الفخر ، فاعتزم أن ينظم قصيدة تشتمل حياته كلها ، فلما أتم قصيدته وكانت تتضمن تاريخ حياته كلها وبلغ عدد أبياتها مائة وعشرين بيتا ، حملها الى رجل أديب هو « محمد صدقي » فقال الرجل : انى أود اقامة حفل بهذه المناسبة تلقى فيه قصيدتك تكريما لشوقى ، فقال محفوظ : انى لم أعلمه بهذا ، واحب ان يكون مفاجأة له ، فضحك الرجل قائلا : اتكرم رجلا مقيما بمصر فى حفل يغيب عنه ؟ فحجل محفوظ وعزم على ان يبلغ أبى ، وحمل القصيدة وتوجه بها الى « جروبي » حيث كان يجلس بين جماعة من العلماء والوجهاء واصحاب الاعمال : فلما ابصره أبى دعاه الى الجلوس وسأله عن الاوراق التى يحملها ، فقال : هذه قصيدة نظمتمتها فى تاريخ حياتك ، وأنا الآن راجع من بيت « محمد صدقي » ، وقد اتفقنا على ان نكرمك فى حفل مشهود ، وأنا حاضر الآن للاتفاق على تشريفك الحفل . فاذا به يتحول من رجل باسم ظريف ، الى نمر غاضب وصاح فى رعب عاصف وبصوت مرتفع قرع كل اسماع الجلوس : أنت تريد ان ترجعنى الى المنفى ، أنت مدسوس على من الانجليز ، سأبلغ الشرطة فوجم محفوظ واصابه شلل عطل لسانه وتفكيره وشمل كل حواسه واحدقت به العيون المتطفلة الفاحصة ، ودار الهمس بينهم وأصبح لا يستطيع البقاء ولا يستطيع الانصراف ووقع فى بلاء عظيم ، وبعد فترة رجع الى نفسه الجريح فقال : أهذا جزائى ؟ شكرا ، ثم

انصرف تشييعه العيون الهازئة . فلما كان فى الشارع أبصر صاحباً كان يجالس الجماعة ، يجرى وراءه ثم امسك به وهو يقول : يا شيخ ، لا تغضب ، انه متأسف . فصب عليه محفوظ غضبه المكتوم فى قذائف كلها سباب . وانصرف الى بيته وهو فى أسوأ حال من الخجل والاضطراب . حتى اذا كان مساء اليوم نفسه طرق باب طارق ، فلم ينصرف خاطر « محفوظ » اليه قط فقد باعد الغضب بينه وبينه ، فلما بلغ الحديقة الفاه وقد أخذ بعروة سترته العليا كعادته وهو يرفع عينيه الى تعريشة استراحت عليها الكروم . فلما ابصر به قال : يبدو ان هذا العنب من النوع الممتاز ، اذهب فالبس وأنا منتظر هنا ، ثم اركبه سيارته ، فرأى محفوظ فى زيارته له ترضية كافية .

— ومن العجيب أنه كان كريماً فى شبابه بل متلافاً ، ولكن انتشار الخوف من داخل القمقم فى شيخوخته جعله يخاف الفقر أيضاً ، فقد رأيت العفاة والقيصاد يتجمعون عليه مرة فاعتذر اليهم وهو غاضب ، ثم التفت الى قائلاً : لو اعطيت كل انسان كل يوم ، لأصبحت محتاجاً استجدى . ولكنه والحق يقال ما زال سمحاً اذا تحقق من نازلة نزلت بصديق أو محتاج . فقد بعث اليه مرة الشاعر العراقى الكفيف عبد المحسن الكاظمى بكتاب يشكو فيه فقراً ومرضاً طرحه الفراش ، فلما تحقق من الأمر ، بعث اليه قدراً طيباً من المال . وقد ذكر لى « محفوظ » انه كان فى ضائقة مالية يوم وفاة أبيه وقد لاح الضيق بوجهه فادرك حين رآه حاجته ، فلم يشأ ان يخرجه أو يؤلمه حين يقدم اليه هبة ، فتلطف وقدم له مالا دعاه قرضاً . وحاول محفوظ بعد ذلك أن يردده اليه فأبى أن يأخذه وقال له : أنت ابنى ، فليس لك ان ترد مالا تأخذه من رجل كأبيك ، وكثيراً ما رأيتة يعطى بعض الأدباء .

— غير أنه برغم هذا ، جرى جرأة نادرة فى أدبه ، شعره

ونثره . فعندما وصلت « أم الحسنين » وتجمعت الشرطة لتفريق
المرحبين بها بايعاز من الملك قال في قصيدته :

بريء الرفق من السيف الذي منع الأم ملاقاته البنين

ولم تعوزه الشجاعة حين قال في رثائها مشيرا الى شماته
الملك ، وقرب شماته الناس به :

واسخري من شانئ او شامت ليس بالمخطيء يوم الشامتين

وقد كان أخى على في أول عهده بالوظائف يعمل في وزارة
المعارف ، وقد التحق بالوظيفة بعد عناء شديد ، لأن الملك كان
معارضاً في تعيين ابن شوقى ، ثم سعى له طاهر حقى في الالتحاق
بوزارة الخارجية ، وحدث بين السعى وبين اتمامه ، ان أبى زار
حديقة الحيوان ورأى الأسد فى القفص ، وأراد ان يكتب مقالا
حوله ، فلما كان المساء جاء طاهر حقى وجلسنا نتحدث فى أمر
هذا المقال ، فقال طاهر : ان الملك سيحسب أنه المقصود بالأسد
الخبيس وأنه تعريض خفى ، ولهذا احشى ان تخفق مسألة وزارة
الخارجية ، وقررنا ان نكلمه فى الموضوع ، لأن حذف مقال من
انتاجه لن يضره . فلما حضر دعا « محفوظ » ليملى عليه المقال ،
وبداً محفوظ يكتب :

« يا جار الجيزة وأسير الحديقة ، سرت هموم فلم تنم ،
ارقتنى شهون وشجون وذكريات مما تركت السنون ، وأرقك حز
القيد ، وضغط الحديد ، واثارك ذكرى الصيد ، والحنين للبيد ،
سبحان المعز بالحرية المذل بالرق ، ما أرقك بالأسحار ، وكان
غطيتك أرق الصحار ، وفرق السمار ، ما بال زئيرك ينام عليه
الطير ملء جفونه ، ولا يتحرك له ليل الجيزة من سكونه ، أصبح
أقل من النجاح واذل من النباح ، وكان بالامس يرعد البطاح .
وأين بالبدة طلعة كانت تعقل الفرس والفارس ، فأصبحت يدعو

العيون اليها الحارس يطيف بها النشأ ولا تخفيف الرشأ ...
وما اسفى والله على ظفرك المقلوم ولا على نابك المحطوم ، فانى
وجدت البغى ليس يدوم ، وانما اسفى أبا الاشبال على تلك
الشخصية المتظاهرة وتلك الروحية القاهرة .. فاسترحت من
الرأى وصراحته ، والفكر وشجاعته ، والمبدأ وصلابته ، وكفيت
سيوفا بينا هى لك ، اذا هى عليك ، واقلاما مأجورها أسيرك ،
وظليقها أنت أسيره .

وحاولنا جهدنا ان نقنعه بوجهة نظرنا ، فلم يقبل مهما كانت
العواقب ، ونظر الى محفوظ الذى توقف فنهره ، فقال محفوظ :
لم تقدر على الحمار ، قدرت على البردعة ، فضحكنا .

- ومن أجل ذلك يخاف الصحافة ويجزع من النقد جزعا
شديدا ، فلا يطيق ان يقرأ سطرا واحدا في الحط من شعره كما
لو كان شعره هو عرضه ، ويفضب على من ينبهه الى نقد لشعره
في صحيفة من الصحف ، على الرغم من حرصه على قراءة كل نقد
وجده ، ولم يجزع يوما كما جزع يوم ظهور كتاب الديوان للعقاد .
هؤلاء الصحفيون أشبه بوحوش السرك ، اذا غفل شوقى عن
أحدهم واسترخى ، وثب وثبة خدشه فيها بمقال مضاد فيثور
ويسميها الصحافة الساقطة . وهو على عظم مكانته وعلى قدمه
الراسخة فى الفن ، متعب منهوك لا يستقر عن الدوران بين دور
الصحف ، فهو فى الاهرام والبلاغ والسياسة والاخبار والجهاد .
كذلك مائدته لا ترفع أطباقها ولا يطوى غطاؤها فهى دائما محفوفة
بالصحفيين وغيرهم ممن يخشى اقلامهم ويخاف تقدمهم . وفى
الحق أنه هو الذى صب على نفسه هذا البلاء ، فقد اغرى به
جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء ، عرفوا ضعفه فاستغلوه .
ولو تماسك واطهر قلة مبالاة بمدح أو بدم ، لسلم من كثير من
الآلام النفسية ، التى كانت تعتريه حين يقرأ نقدا قاسيا ، فشعره
غنى عن هؤلاء وأولئك ، ولكنها طبيعته ، أو قل انها عقدة الخوف .

النهاية

قد كنت أوتر ان تقول رثائي
لكن سبقت وكل طول سلامة
وأثيت صحراء الامام تذوب من
كم ضقت ذرعا بالحياة وكيدها
فهلهم فارق يأس نفسك ساعة

يامنصف الموتى من الأحياء
قدر وكل منية بقضاء
طول الحنين لساكن الصحراء
وهتفت بالشكوى من الضراء
واطلع على الوادى شعاع رجاء

كان يخاف الموت ويفزع من حديثه ، فكيف قالها ؟ لقد
فزع كل من قرأها ، ولكنه قالها يوم وفاة حافظ واتبعها بكلمة
جرير يوم مات الفرزدق : « والله ان بقائي بعده لقليل » . وذهب
الصيف الذى اخترم حافظا ثم اقبل الخريف الموحش بكآبته
التي يرتجف منها الشجر حين يتعري من أوراقه ، ويسرى حزن
غامض الى الارواح المرهفة فتحس بانقباض ، كانت لا تحسه فى
ليالى الصيف الرقيقة ، المليئة بالحركة وبالسمر . وكان يوم
١٣ أكتوبر عام ١٩٣٢ ، احس فيه بنشاط غير عادى ، وضحك فيه
كما لم يضحك من قبل . انه يحتفظ بالحلوى دائما فى مكتبه
ليستدرج بها حفيديه ، وهكذا أخذ يداعبهما وهو يردد : « أو
تظنون أن هذين الشيطانين يجيئان لزيارتى لولاها ؟ بالله
ما نفعهما فى مازحة شيخ مهدم مثلى ؟ »

انه سعيد اليوم يحس أن أوصابه وآلامه قد انتهت ، فانهى
هذه البشرى الى كاتبه ، وخرجا مساء اليوم لتناول العشاء
وزيارة الاصدقاء . ثم أخذ يفكر فى وفد من شباب أعضاء جمعية
القرش سألوه ان ينظم قصيدة فى أول نتاج المشروع ، ويستعد

للقائهم فى الغد ، فىحلم بالغد • وأحس بسعال ينتابه من أثر برد الليل ، فاستقل عربة الى داره المطلة على النيل الخالد الذى أحبه وتغنى به • وجاء الخادم فنضا عنه ثيابه ، وأرخى عليه الكلة فى فراشه ثم حيا وانصرف • وخفق البلبل خفقة ، ثم أخذته سنة متقطعة ، فلما كانت الساعة الثانية صباحا ، جاء ذلك الذى طالما ملأ قلبه رعبا ، فهب مذعورا ، ولكن الطارق أناخ على صدره ، وأخذ عليه أنفاسه ، فجمع كل ما تبقى له من قوة واهنة وقرع الجرس يدعو الخادم ليسعفه بالكافور ، عله يرخى من قبضته ذلك الآخذ بخناقة ، ولم يكن يدري أنه الموت • وهروا الخادم ، ولكن البلبل المحتضر رأى شبح المنية يقهقه ، فاستدعاه مرة ثانية وقال فى كلمات منقطعة « لا تحضر شيئا ، فانها النهاية ، ولكن استدع السيدة والأبناء لأودعهم • »

وهبت السيدة الكريمة مذعورة على هول النبأ ، وأسرعت الى غرفة الزوج الذى لم يفاوضه يوما قط . فسمعت ذلك الشخير الذى يخرج بآخر أنفاس المحتضر ويدع العينين مفتوحتين والفم فاغرا فزعا ، فأغمضت العينين وأقفلت الفم وأسندت الرأس الى القبلة ، ذلك الرأس الذى طاقت به معجزات الفن الخالد ، ومات شوقى ••

فى غمرة الاسى والدموع شيعت مصر أمير الشعراء الى مقر الأبدية ، فما انتصفت الساعة الخامسة من مساء ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ ، حتى غص السرادق الفسيح الذى اقيم فى ناحية من ميدان التحرير أمام قصر النيل بفحول الأدب ورجال الصحافة وطلاب العلم • ثم وصل جثمان الشاعر على سيارة فانتنظم الموكب تتقدمه طلبة المدارس فى صفين على جانبي الطريق ، تتوسطهم الاعلام وقد ارتسمت عليها امارات الحدود ، وتبع الطلبة جنود الشرطة من راكبى الخيل ثم المشاة فنعش الفقيد محمولا على أعناق

أعضاء من جمعيتي « أبولو » و « رابطة الأدب الحديث » فطلاب
الجامعتين المصرية والأمريكية • وسار خلف النعش نجلا الفقييد
فوزير المعارف مندوبا عن الحكومة فجمع من الصحفيين والشعراء
والأدباء وأعضاء الجمعيات العلمية والخيرية ، فكثير من اساتذة
الجامعة والمدارس ، فالطلاب والتجار والعمال •

واجتاز موكب الجنازة شارع قصر النيل بين صفين من
جموع الشعب المحتشدة ، وتضاعف عدد المشيعين في أثناء الطريق ،
وكان المصورون قد تخللوا هذا الشارع ، فأخذوا في التقاط منظر
المشهد الذي تمثل فيه حزن مصر وحزن الوطن العربي • ثم
وصل الموكب قبالة جامع الكخيا قرب ميدان الأوبرا ، حيث أديت
صلاة الجنازة • ولما جرى بالجثمان ، التف بالنعش طلاب الجامعة
وهتفوا « في ذمة الله يا أمير الشعراء » وكان كثير من الشعب قد
سبق الى مدفن الأسرة ، فلما وصل الجثمان امتلأ الجو بالهتاف ،
وتقدم فريق من الطلبة وبعض الرياضيين فحملوا النعش الى مقر
اللحد ، فدبت لوعة الاسى في قلوب الحاضرين وكأنهم لم يعلموا
الا هذه اللحظة أن مصر فقدت أمير بيانها وشعرها ، فما شهدوا
الجثمان محمولا الى مقره الأخير ، حتى علت الاصوات بكاء ونحيبا
تخللها عبارات حبسها الحزن ودفعت بها حرارة الألم •

وفيما كان العمال يودعون الفقييد لحده ، وبيننا جموع الشعب
تتنفس تحسرا وألما ، علا صوت أديب فاضت عيناه بالدموع « الى
أين يا أبا الشعر والحكمة » فحركت هذه الكلمة ساكن الاحزان ،
فامتلاً المساء الشاحب بالانين والتوجع ، حتى وجد الناس أنفسهم
في مناخة استفحل فيها الخطب وعز فيها العزاء ، وكانت الشمس
قد آذنت بالغروب (١) •

(١) البلاغ في ١٥ اكتوبر ١٩٣٢ •

وظلعت الصحف سوداء حزينة ، في يوم حزين لم تطرب فيه نفس . وتوالت طبعات الصحف في مصر ، في لبنان ، في سوريا ، في الاردن ، في السودان ، في العراق في لندن وفي باريس تنعى أمير الشعراء وتمتلىء برسوم الجنائز ، وتتساءل عن كان يملأ الدنيا حياة . كيف غاله العدم ؟ وتوالت قصائد الشعراء الذين فقدوا رائدهم ، فاعترف الزهاوي والرصافي بامارتته ، وما كانا في حاجة الى الاعتراف ، وفي كل بقعة من أرجاء الوطن العربي هتف الشعراء باسمه ، أو رددوا أبياته الخالدة في الرثاء :

أخ كان يملأ أمس الهواء	ويحيا الحياة ويجرى العمر
نزىل لهمري غريب الفطاء	غريب الوطاء غريب الحجر
يزار كثيرا فدون الكثير	فغيا فينسى كان لهم يزر
تلفت وراءك أين السرور	وإين السرور وإين الاثر
فدق سنة لا ككل السنوات	ونم ليلة ما لها من سحر
وقل للصديق طوبىنا الحديث	وقل للصديق طوبىنا الحديث
وهيبء مكانيهما في التراب	فان ركابيهما منتظر

وعلى ذرا لبنان التي عشقها البلبل وصدق لها وهام في رباها ، وقف شاعرها الأخطل الصغير ، وقد جاء الخريف وافتقد البلبل ، فتطلع الى الأفق ، عله يرى عله يسمع ، ثم هتف من من أعماقه :

قف في ربا الخلد واهتف باسم شاعره

فسدرة المنتهى أدنى منابره

ونكن الرياح لم تردد الا الصدى ، فقد رحل رحلته الأبدية وزوبعت الأركان بريش جناحيه .

وجاء يوم الاربعين فرفعت الستار بمسرح الازبكية (١) ،
عن جوقة كبيرة من الموسيقيين يتوسطهم الموسيقار محمد
عبد الوهاب ، واهتزت الأوتار جميعا بنغم حنون من « الصبا »
الشجي الحزين الى قراره ، وتهدج صوت عبد الوهاب وهو يردد:

حظمووا الاقداح مثلهما حطمت حزننا قدحى
ودعوا الافراح طوى اليوم بساط الفرح
خلدوا ذكراه فى كل القلوب خلدوها
مجدوا ذكراه شيبانا وشيب مجدوها
عاش كالزهرة عطرا وندى وكسا الفن جلالاته
لن تردوا بعض ما أسداكم ابدا مهما فعمتكم ابدا

واذا ما ذهبت اليوم الى قبر البلبل ، ترد بعض الدين
أندى اسداه الى الوطن العربى ، الى المسرح ، الى الاغاني ، الى
الأطفال ، الى الفن الخالد ، اليك والى كل فرد ، وجدت على قبره
بيتين ينطقان بالزهو وبالأمل .

يا أحمد الخير لى جاء بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله يجعلنى فى خير معتصم

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ١٢٥

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تقدمة :
الباب الأول :	
٥	البلبيل الصغير
٦	المهاجر
١٢	الصبي الموعود
١٩	اللحن القديم
٢٣	فى فرنسا
الباب الثانى :	
٣٥	القفس الذهبى
٣٦	فى القصر
٤٧	كرمة ابن هانىء
٥٥	حيرة
٦٩	مع الكروان
٧٦	ساقى الطلا

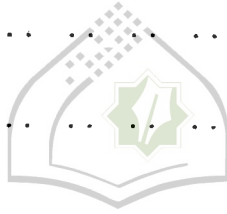
الموضوع

الصفحة

٨٣	زحلة
٨٨	ان الرواية لم تتم فصولا

الباب الثالث :

٩٧	الغريب
٩٨	في برشلونه
١٠٥	الحنين
١١٥	العودة



مركز تحقيقات كميوتور علوم اسلامي

الباب الرابع :

١٢١	انطلاقة جديدة
١٢٢	أوطان
١٣١	طير الحجال
١٣٨	الحكيم
١٤٥	بداية ونهاية
١٥٠	معارك
١٥٨	تتويج
١٦٦	في الليل لما خلى
١٧٠	في المسرح

الباب الخامس :

١٧٩	اللحن الباكي
١٨٠	دموع البلبل
١٨٤	عقدة الخوف
١٩٢	النهاية



الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣

تقدمة :

الباب الأول :

٥

الببلب الصغبر

٦

المهاجر

١٢

الصبب الموعود

١٩

اللحن القديم

٢٣

فى فرنسا

الباب الثانى :

٣٥

القفس الذهبى

٣٦

فى القصر

٤٧

كرمة ابن هانىء

٥٥

حيرة

٦٩

مع الكروان

٧٦

ساقى الطلا



مركز تحقيق وتطوير علوم سعودى

الموضوع

الصفحة

٨٣	زحلة
٨٨	ان الرواية لم تتم فصولا

الباب الثالث :

٩٧	الغريب
٩٨	في برشلونه
١٠٥	الحنين
١١٥	العودة



مركز بحوث وتطوير علوم العربية

الباب الرابع :

١٢١	انطلاقة جديدة
١٢٢	أوطان
١٣١	طير الحجال
١٣٨	الحكيم
١٤٥	بداية ونهاية
١٥٠	معارك
١٥٨	تتويج
١٦٦	في الليل لما خلى
١٧٠	في المسرح

الموضوع

الصفحة

الباب الخامس :

١٧٩	اللحن الباكي
١٨٠	دموع البلبيل
١٨٤	عقدة الخوف
١٩٢	النهاية



مركز بحوث الكمبيوتر علوم إرسدي